إسـلام بـلال

كل إيمان فهو شئ يتجاوز الفرد الواحد ولا ينحصر فى مصلحته العاجلة أو الآجلة .

فليس بإيمان ذلك الذى يخص فرداً واحداً ولا يتجاوزه إلى غيره فى زمنه أو بعد زمنه ، وليس بإيمان ذلك الذى يدور على المصلحة الفردية وإن تعدد فيه الأفراد ، لأن الإنسان قد يضحى بالمصلحة فى سبيل الإيمان ولا يفعل ذلك وهو يحسب حساب المصالح ولا يتجاوزها .

وقد يضحى الإنسان أحيانا بالإيمان فى سبيل المصلحة العاجلة أو الآجلة ، ولكن ذلك لا ينفى أن الإيمان شئ أكبر من المصلحة عاجلها وآجلها ، وإنما يدل فى هذه الحالة على أن ذلك الانسان يستبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير ، وأنه ضعيف اليقين ضعيف الاستعداد للإيمان .

فالإيمان لا يقوم على أساس المصلحة العاجلة أو الآجلة .

ويكفى أن يضحى الناس بمصالحهم فى سبيل إيمانهم – ولو فى بعض الأحيان – لتقرير هذه الحقيقة من وراء الجدل والخلاف .

لأننا نفهم أن ينسى الرجل إيمانه فى سبيل مصلحته فنقول إن المصلحة عزيزة عليه وإن الايمان ضعيف فى نفسه .

ولكننا لا نفهم أن ينسى الرجل مصلحته فى سبيل إيمانه إلا على وجه واحد ، وهو أن الإيمان والمصلحة معدنان مختلفان ، وأن المصلحة عزت أو هانت هى شئ غير الايمان .

ولا يقال إن مصلحة الآخرة تدخل فى حساب الرجل فينسى من أجلها مصالحه الدنيوية . فإن تصديقه بمصلحة الآخرة هو نفسه إيمان بالغيب ، وهو سابق لحصول المصلحة على كل حال .

ومع هذا وجد فى زماننا هذا أناس – كأتباع كارل ماركس – يؤمنون

بالمادة وينكرون كل شئ غير هذه الدنيا المحسوسة ، ويقولون إن الأديان والمذاهب والآداب وكل ما يحيك بضمير الإنسان إن هى إلا صورة من حياته المادية التى لا بعث بعدها ولا محل للروح فيها ، ومنهم مع ذلك من يدخل السجن ويتعرض للنفى ويجازف بالحياة ويفقدها فى سبيل إيمانه بمعتقده وإنكاره لمعتقد الآخرين . . . وليس بالمعقول أن يفقد الانسان الحياة لأنه يطمح إلى الطعام الهنئ والعيش الرغيد ، وليس بالمعقول من باب أولى أن يفقد الحياة ليأتى بعده من ينعم بالطعام الهنئ والعيش الرغيد وهو تحت التراب . فإذا هو أقدم على فقد الحياة فالمسألة عنده ليست مسألة حساب وموازنة أو مسألة مصلحة كبيرة بإزاء مصلحة صغيرة ، ولكنه إنما يفعل ذلك لأنه بازاء قوة تمضى به حيث شاءت ولا يمضى بها حيث شاء ، أو لأنه فى حالة نفسية غير حالة الحساب والموازنة ووضع الأرقام بازاء الأرقام .

وقد شوهدت فى الدنيا عبادات كثيرة وعقائد لاتحصى ، ولكن لم تشاهد قط عقيدة تقبل التضحية بالحياه وهى خلو من إيمان بحق وثورة على باطل ، ولم تشاهد قط عقيدة تقبل التضحية بالحياة وهى قائمة على منفعة تخص صاحبها ولاتتجاوزه إلى الآخرين . ومتى تجاوزت المنفعة فرداً واحداً وأصبحت قابلة للتعميم بين الأفراد الآخرين – فهى إذن مسألة حق سابق لوجود المنافع وسابق لوجود الأفراد .

فالإيمان أبداً هو شعور بالحق وليس شعوراً بالمصلحة على وجه من الوجوه .

وقد تقف المصلحة فى سبيل العقيدة قبل الإيمان بها ، لأن المصلحة

موجودة والإيمان غير موجود . ولكنهما متى وجدتا معاً فهما شيئان وليسا بشيء واحد . ويظلان أبداً شيئين من معدنين مختلفين وإن تلاقيا فى الطريق إلى مدى بعيد .

وإن إسلام بلال رضى الله عنه لمن الشواهد الكثيرة التى تقرر هذه الحقيقة فى الأذهان .

وقد عنينا بأن نبين مزايا الاسلام فى معاملة الأرقاء . ولكننا عنينا مع ذلك بأن نبين حقيقة أخرى لابد من تبيينها فى هذا المقام ، وهى أن المعاملة نفسها ليست هى سبب دخول الأرقاء فى الإسلام ، وإنما هو « الحق » والشعور بجمال هذا الحق أو وجوب تغليبه على الباطل ، ولو لقى الأرقاء فى سبيله ما هو أقسى عليهم من معاملة المشركين للعبيد والإماء .

كان أول من أسلم ثمانية هم أولئك النخبة الأبرار : خديجة وأبو بكر وعلى وعمار وأمه سمية وصهيب وبلال والمقداد .

قال رواة صدر الإسلام : أما أبو بكر فمنعه الله بقوته وكذلك من كان لهم قوم يحمونهم . وأما سائرهم فاخذهم المشركون فألبسوهم أدراع الحديد وأصهروهم فى الشمس فما منهم إنسان إلا وقد واتاهم على ما أرادوا من الكفر وسب النبى عليه السلام . إلا بلالا فانه هانت عليه نفسه فى الله وهانت على قومه فأعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به فى شعاب مكة وهو يقول : أحد . أحد . ولا يزيد .

وجاء فى طبقات ابن سعد بأسناده ما فحواه : إنه كان من المستضعفين من المؤمنين ، وكان يعذب حين أسلم ليرجع عن دينه فما أعطاهم قط كلمة مما يريدون ، وكان الذى يعذبه أمية بن خلف . . . وكانوا إذا اشتدوا عليه فى العذاب قال أحد . أحد . فيقولون له قل

كما نقول . فيقول : إن لسانى لا يحسنه . وكانوا يأخذونه فيمطونه ويلقون عليه من البطحاء وانطاع الأدم ويريدونه على أن يذكر اللات والعزى فلا يذكرهما ويقول : أحد . أحد فأتى عليه أبو بكر فسألهم علام تعذبون هذا الانسان ! واشتراه بسبع أواق وأعتقه .

ومما جاء فى الطبقات أن أبا جهل جاءهم بالعشى فجعل يشتم سمية ويرفث ثم طعنها فقتلها فهى أول شهيد فى الإسلام . وهانت على بلال نفسه فى الله حتى ملوه فجعلوا فى عنقه حبلا ثم أمروا صبيانهم أن يشتدوا به بين أخشبىّ مكة فلم يزدهم فى كلمته التى كان يرددها ولا يمل من تردادها : أحد . أحد .

وكانوا يضربونه ويلقونه على الرمال الكاوية فى وقدة الهجير ثم يضعون الحجارة على صدره وهو لا يجيبهم إلى كلمة مما يسألونه ، ولا يسكت ولا يكف عن الجهر بالتوحيد » .

* * *

هذه صورة بلال رضى الله عنه فى مبدأ إسلامه وهو يتلقى العذاب ويتعرض للموت ولا يصل به الإسلام إلى الوعود – فضلا عن تحقيق الوعود – فى معاملة المستضعفين من العبيد والاماء ، لأن أحكام الاسلام فى معاملة الآسرى والأرقاء على التعميم لم تكن معروفة مفصلة فى ذلك الحين .

وإن آخر ظن يخطر على بال المرء إذ يرى بلالا على تلك الصورة المؤلمة أنه يرى رجلا وازن بين سوء المعاملة فى الجاهلية وحسن المعاملة فى الإسلام فاختار المعاملة الحسنة ودخل فى الدين الجديد من أجلها .

لأن إسلام بلال لم يكن مخرجه من رق سادته المشركين ، ولم يكن

سوء معاملتهم إياه قبل الاسلام شيئاً يذكر إلى جانب ذلك العذاب الأليم الذى كان يسامه بعد إسلامه ، ولو كان حسن المعاملة همه من الدين الجديد لا نتظر حتى يسلم سادته فيطمع عندهم فى تلك المعاملة الحسنة ، أو لانتظر حتى يمتنع جانب المسلمين بالعدد الكثير فيجهر بالإسلام بين مئات وألوف ، ولا يعجل إلى دخول الدين الجديد بين نفر من المغلوبين المطاردين ، سواء من الأحرار أو العبيد .

وأعجب شيء أن يخطر للعقل أن الإسلام قد سوى بين العبيد والأحرار فآمن به العبيد ، ولا يخطر له أن هذه التسوية تغضب الأحرار فتحميهم الأنفة أن يدخلوه ، وقد دخله الأحرار كما دخله العبيد فى مبدأ التبشير بالدين الجديد .

فإن كانت لبلال وصهيب وأمثالها مصلحة فى الإيمان بذلك الدين لأنه يسوى بينهم وبين أبى بكر وحمزه وعثمان وعلى والفاروق فما مصلحة هؤلاء فى النزول بأقدارهم إلى حيث يتساوون بعبيدهم المستضعفين وهم أولئك ذوو الحميه التى تشمخ برؤسهم على رؤوس الأحرار من أبناء كل قبيل لا يضارعهم فى العزة والجاه !

فمن الحق وسكينته فى النفوس فلنبحث فى تعليل الإيمان بكل عقيدة جديدة وكل مصلحة إنسانية فوق مصالح الأفراد ، وإنما يوجد الإيمان حين يوجد للنفس حقٌ محبوب وباطل مكروه ، ولو ضاعت فى سبيل حب الحق وكراهة الباطل مصلحة عاجلة أو آجلة أو ضاعت الحياة بغير أمل فى الجزاء .

فلا العبيد آمنوا لأن الإسلام يسوى بينهم وبين الأحرار ولا الأحرار

آمنوا لأن الاسلام يسوى بينهم وبين العبيد . لأن قصارى هذه التسوية أنها مصلحة لفريق من الناس ، ومازال الإيمان والمصلحة شيئين مختلفين ومعدنين متباينين . فالمصلحة شيء تحتويه حياة الفرد وقد تحتويه حصةٌ قليلة من حياته ، أما الإيمان فهو أبداً شيء يتجاوز الفرد الواحد وقد يبذل فى سبيله المصلحةَ والحياة .

أو لم يوجد فى الوثنية وفى بعض الأديان الكتابية أناسٌ يؤمنون بالأرباب وهم يؤمنون أن الأرباب تفرق بين أقدارهم وأقدار سادتهم فى الحياة وبعد المات ؟

أو لم يكن بلال يؤمن باللات والعزى وغيرها من أرباب الجاهلية وكان لا يرجو نصفةً منها ولا تسوية بينه وبين ساداته المتجبرين عليه وعلى سائر الضعفاء ؟

فلما ساء ظنه بهذه الأشتات من الأرباب كان حسن ظنه بالأله « الأحد » هو الذى سوّأ ظنه بدين الجاهلية ، وكانت وحدانية الله العلى الأعلى هى التى تجرى على لسانه وتعمر قلبه وتعينه على شدته وهو يتلظى من ألم العذاب بين يدى سادته القساة .

فكانت الوحدانية هى الكلمة الواحدة التى لخص بها فضل الدين الجديد على الدين المهجور ، وقد ألهم هذا التلخيص الصادق الوجيز إلهام الايمان الذى يهدى العقل إلى موقع الهدى من أوجز طريق ، فلو أنه كان يقول « الرحيم » فى موضع « الأحد » لجاز أن يقال أن فى الآلهة الوثنية من يتصف بالرحمة ، أو لجاز أن يقال إن الرحمة بدرت إليه فى تلك اللحظة لأنه يشتكى القسوة والعذاب . ولكنه لما ردد كلمة

الوحدانية ولم يردد غيرها كان قد هدى إلى الصفة الوحيدة التى لا يدعيها المدعون لأرباب الجاهلية ، كما هدى إلى الصفة الوحيدة التى تجعل الايمان إيماناً بالحق ولا تجعله انتظاراً لرحمة أو غفران أو جزاء .

ولا نريد أن نقول إن الايمان والمصلحة لا يجتمعان ، ولا أن نقول إن المؤمن لا تخطر له المصلحة بحال أو إنها لا شأن لها البتة فى تحول العقائد والعبادات . فان المصلحة قد تعوق كثيراً من الناس عن قبول دين جديد ، وقد تنبه الأذهان إلى الإصغاء الذى يتبعه الارتياح والتصديق ، وقد تكون مصلحة فرد ومصلحة ألوف من الناس ، فيستطاع الجمع بينها وبين الايمان بالخير العميم .

ولكن الذى نقوله إن المصلحة غير الإيمان وإنهما قد يفترقان كما يتّفقان ، ولو كانت المصلحة هى الايمان لو جدتْ المصلحة ولم تكن هنالك حاجة إلى وجود إيمان على الاطلاق ... كفى أن يسعى الانسان إلى مصلحته دون أن يجعل الايمان سبيلا إليها ، وكفى أن يلتزم المصلحة ولا يتعداها إلى الشعور الذى يحبب إليه الموت . فأما وقد وجد الايمان فى كل زمن من الأزمان ، ووجد مع انتظار الجزاء ومع اليأس من كل جزاء ، فلا معنى لأن يقال إن فرداً من الأفراد قد آمن لأن له مصلحة فى إيمانه ، فإنه يضم إلى المصلحة شيئاً آخر إذن حين يدعمها بالإيمان .

كلا . ليست صورة بلال على رمال البطحاء الموقدة فى قيظ الصحراء صورة الرجل الذى طلب الخلاص من قسوة السادة . لأن الخلاص هو كل ما يعنيه .

وليست صورته وهو يكرر « الأحد . الأحد » بصورة الرجل الذى

دخل الدين الجديد وهو يجهل الفارق الصحيح بين الدينين . ولا يعرف للدين الجديد فضلا إلا الرحمة بالعبيد فى الأرض أو فى السماء .

لقد كادوا يقتلونه وهو لا يجيبهم إلى تعظيم آلهتهم ولا يؤثر السكوت . ولعلهم لم يبقوا عليه إلا لشحهم بثمنه أن يضيع عليهم إن قتلوه . ولعل أبا جهل قد قتل سمية لأنها جارية عجوز لا تصلح للبيع ولا للمبادلة . ولم يقتل بلالا ولا عماراً ولا صهيباً لأنهم رجال عاملون يباعون ويشترون ... ولكنهم لاشك كانوا قاتليه آخر الأمر إن يئسوا منه ولم يجدوا من المشركين من يشتريه وهو صابئ عن دين الجاهلية . فلم يكن إسلامه سبيل رفق ولا تخفيفاً من عناء . بل كان سبيل عذاب ومخاطرة بالراحة والحياة .

وأى عذاب ذلك العذاب ؟

حسبنا أن نعلم أن رفقاء بلال جميعا قبلوا ماسامهم المشركون أن ينبسوا به – ومنهم عمار بن ياسر – لنعلم أنه كان عذابا يفوق طاقة الانسان .

إن عماراً لم يكن يهاب الموت فى هرمه ، ولكنه ضاق – فى صباه – بذلك العذاب الأليم .

كان يجاهد مع على رضى الله عنه وقد أناف على التسعين ، وقد شهد المغازى فى عهد النبى وعهود الخلفاء ، وكان عليه السلام يقول : « إن عماراً ملىء إيماناً إلى مشاشه » ويجعله قدوة للمسلمين فى الهداية فيوصيهم أن يقتدوا بأبى بكر وعمر وأن يهتدوا بهدى عمار . وهو أيضا لم يجذبه إلى

الإيمان طلب راحة وطمع فى حسن معاملة ، لأنه كان يرى طريق الراحة والغنيمة مع معاوية وينضوى إلى جانب على يموت تحت لوائه فى صفين ، وما كان على لو انتصر بمغدق عليه مالا ولا بمطمعه فى عيش أرغد من عيشه ، وهو عيش الكفاف .

وقد كان عمار رضى الله عنه ممن يصدق عليهم القول بأنه قد وهب عبقرية الإيمان . لأن إيمانه كان ذلك الايمان الخالص الذى يوصف بأنه الإيمان حباً للإيمان لا حباً بما وراءه من رضى أوجزاء . وآية المؤمن الموهوب أنه لا يرضى العيش بغير العقيدة ولا يطيب له البقاء وهو مخالف لما يعتقد . فيقبل على الموت كراهة للبقاء فى دنيا لا تواتيه على اعتقاده . وليس يقبل على الموت طلباً للجنة كما يقال ، فإن من المؤمنين بالعقائد المادية كما أسلفنا من يموت فى سبيلها ولا أمل له فى حياة بعد الحياة ، وإن الجنة لحبيبة إلى كل إنسان يصدق بها . فليس الفرق بين رجل يجاهد ورجل لا يجاهد أن هذا يكره الجنة التى يحبها ذاك ، وإنما الفرق بينهما هو قوة الإيمان أو هبة العقيدة ، وهى قد كانت فى عمار على أقوى ما تكون فى إنسان .

ومع هذا خف الموت على نفس عمار فسعى إلى لقائه عشرات المرات منذ غزا مع النبى إلى أن نيف على التسعين ومات تحت لواء على بمعركة صفين ، ولكنه ثقل عليه ذلك العذاب الأليم الذى صبر عليه « بلال » وظل صابرًا عليه بغير أمل فى الخلاص القريب ،

وكل طمع فى حسن المعاملة يزول ويبطل فى مثل ذلك العذاب الذى ضاقت به طاقة عمار .

نعم يزول ويبطل لولا إيمان يهون معه الموت ويهون معه العذاب ، ويهون معه سوء المعاملة وحسنها على السواء .

نعم إن العبيد كانوا أسرع من الأحرار إلى دخول الدين الجديد ، ولكن الذى يفهم من ذلك - أو ينبغى أن يفهم منه - أن المصلحة لم تكن عقبة بين العبيد وبين الأصغاء إلى الدعوة الجديدة ، وأن الأحرار كانت لهم مصالح تحجبهم عن جمال تلك الدعوة وعن التأمل فى صدقها وبطلان ماهم عليه ، وفرق عظيم بين القول بأن المصلحة لم تكن عائقاً عن فهم الدين والدخول فيه وبين القول بأن الدين هو المصلحة التى أرادها المؤمنون ، إذ لو كانت المصلحة هى المراد بالعقيدة لما وجدت العقيدة على الاطلاق ، ولوجدت المصالح كما هى موجودة فى الدنيا بغير اعتقاد على الإطلاق فى شئ من الأشياء .

لقد كانت فى نفس بلال حاجة إلى الولاء والإخلاص، فصدق النبى الكريم لأنه كان أهلا لولائه وإخلاصه ، وكان خليقاً أن يطمئن إليه ويشعر بالسكينة فى الإصغاء إلى قوله والاقتداء بعمله .

وسمع رجلا ينادى بأن الناس أمة واحدة وأن المؤمنين إخوة وهو فى الذؤابة العليا من بنى هاشم أو فى الذاؤابة العليا من قبائل العرب جمعاء ، فكان هذا سبب التصديق والإيمان ، وكانت دعوة الرجل الحسيب النسيب التى لا مصلحة له فيها هى البرهان الأول على صدق العقيدة . ولولا انعدام المصلحة فى دعوة ذلك الرجل الحسيب النسيب لما أسرع بلال إلى تصديقه والجنوح إليه .

فأما وقد جنح إليه وآمن بدعوته فالمسألة بعد ذلك لن تكون مسألة موازنة بين المعاملات أو مساومة على الزيادة والنقصان ، ولكنها أصبحت

مسألة راحة بالإيمان أو راحة بغير الإيمان ، ولم تكن لبلال راحة بغير ذلك الإيمان بعد أن جنح إليه ومزجه بقلبه وضميره . فصبر فى أيام معدودات على عذاب لم يكن ليلقاه من المشركين مدى العمر لو بقى على دينهم كما كان . . . وقد صبر على بلاء الجسد لأنه مستريح القلب والضمير .

على أن المعاملة الحسنة قد جاءت إلى بلال من حيث يحتسب ومن حيث لا يحتسب كأحسن ماتصبو إليه الأحلام ويتعلق به الرجاء

فبلغ من تعظيمه أنه كان نداً لأعظم المسلمين فى حياة النبى عليه السلام وحياة الصديق والفاروق . بل كان الفاروق رضى الله عنه يقول « أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا » ويقصده بهذا اللقب الرفيع ، واتفق يوماً أن أبا سفيان بن حرب وسهيل بن عمرو بن الحارث ورهطاً من سادة العرب طلبوا لقاء الفاروق وطلبه معهم بلال وصهيب . فأذن لهما حتى يستمع لما يريدان ويفرغ بعدهما لعلية القوم . وغضب أبو سفيان وقال لأصحابه : لم أركا ليوم قط . يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابه ؟ وكان سهيل أحكم منه وأدنى إلى الإنصاف فقال لهم : أيها القوم ! إنى والله أرى الذى فى وجوهكم . إن كنتم غضاباً فاغضبوا على انفسكم . دُعى القوم– إلى الإسلام – ودعيتم فأسرعوا وأبطأتم . فكيف بكم إذا دعوا يوم القيامة وتركتم ! » .

* * *

جمال هذا الأدب هو الذى يهون فى سبيله الموت وسوء المعاملة والعذاب الأليم ، وهو الذى يوحى العقيدة إلى النفس فترتفع بها فوق المصالح والمساومات . ولقد كان هذا أدب النبى فأحبه الأحرار وأصغوا

إليه وصدقوه . . . ولقد تمت أداة العقيدة حين تم الحب والإصغاء والتصديق . فما يزال بنو الانسان على هذا الشأن إلى آخر الزمان : ليس بينهم وبين الفداء إلا قضية يحبونها وداع يصدقونه . وما يكونون يوماً أحوج إلى الإيمان منهم يوم تعزّ عليهم القضية التى تحب والداعى الذى يصدّق . فإذا بلغت بهم هذه الحاجة مداها فليس أمامهم محيص من أحدى غايات ثلاث : فناء ، أو حياة كحياة الحيوان ، أو إيمان يوجود حيث كان .

صفات بلال

كان بلال رجلا على سواء الفطرة .

وآية ذلك أنه كان كما ينبغى أن يكون كل رجل قوى الطبع من بنى جلدته وفى مثل نشأته ، يمر بالحوادث التى مرّ بها ويمارس التجارب التى مارسها .

وقد تقدم فى صفات الموالى الأفريقيين أنهم ينقمون الإساءة على المسيء ويحفظون الحسنة لمن يحسن إليهم ويملكهم بمهابته وطيب سجاياه .

وهكذا كان بلال رضى الله عنه فى مجمل صفاته : كان متصفا بأجمل صفات بنى جلدته : وهى الأمانة والطاعة والولاء والصدق مع الولاء ، وكانت فيه مع ذلك قسوة وعناد فى موضع القسوة والعناد ، ولكنه لم يكن بالمبتدئ فى قسوته ولا بالمكابر فى عناده . إنما كان لقسوته عذر أو سبب ، وكان لعناده فضل الإصرار على الإيمان بالصواب .

قال ابن الرومى :

إذا الأرض أدّت ريع ما أنت زارع
من البذر فيها فهى ناهيك من أرض
ولا عيب أن تُجزى القروض بمثلها
بل العيب أن تدّان دنيا فلا تقضى

فالذين أساءوا إلى بلال كانوا لا يحمدون أثر الإساءة فيه ، وكانوا يطلبون منه الرضا حيث أسلفوا له المساءة فلا يجدون الرضا حيث طلبوه ، فإذا بهم ينحلونه صفاتهم ويعيبونه بمساءتهم ، وينكرون صحبته كما ينكر صحبتهم . ومن ذاك أنَّ مشتريًا أراد أن يساوم فيه سيدته «قبل أن يفوتها خيره وتحرم ثمرته» فقالت له متعجبة : وما تصنع به؟ إنه

خبيث . . . وإنه . وإنه ! إلى آخر ما وصفت به سخطه على سوء المعاملة وسوء العشرة .

ومع هذا قد أجمع الذين وصفوا بلالا على أنه كان طيب القلب صادق الإيمان ، وأنه أبعد ما يكون عن خبث أوكنود ، وإنما هو بشرة سوداء على طبع صاف يرى الناس وجوه أعمالهم فيه .

وقد كان أكرم صفاته الفطرية مما يوافق الطاعة وصدق الولاء ، فكان إيمانه القوى بالله ، وإخلاصه المكين لرسول الله ، هما الذروة التى ترتقى إليها محاسن بنى جلدته ، ومحاسن كل مولى مطيع ، سواء كان ولاؤه ولاء تابع لمتبوع أو ولاء معجب بمن يستحق الإعجاب .

كان حبه لرسول الله هو لب الحياة عنده ، وهو معنى الدنيا والآخرة فى طوية قلبه ، وعاش ومات وهو لا يرجو فى دنياه ولا بعد موته إلا أن يأوى إلى جواره وينعم برضاه .

وحضرته الوفاة فكانت امرأته تئن وتغلبها النكبة فى قرين حياتها فتصيح : واحزناه .

وكان هو يجيبها فى سكرات الموت : بل وافرحتاه ! غداً نلقى الأحبة . غداً نلقى الأحبة ، محمداً وصحبه .

على هذا عاش وعلى هذا مات ، وماكان له من علاقة تربطه بهذا الكون العظيم إلا وهى فى جانبٍ منها علاقةٌ بمحمد رسول الله ومحمد سيده ومولاه .

وتلك الزوجة الوفية البارة كانت ترضيه فى معظم حالاتها وكانت لا تخليه من مناكفة فى بعض حالاتها كما يتفق أحياناً فى كل عشرة بين الزوجين وفى كل صلة بين إنسانين ، فكان يقبل منها كل ما يسر ويسوء إلا

أن تمسه فى لب اللباب وأصل الأصول ومناط الحياة والكرامة عنده : وهو إخلاصه لرسول الله وصدق الرواية عنه . فاستعظمت يوماً ما يحدثها به عن رسول الله فإذا به يثور ويغضب ويهم بالبطش بها ثم يدع المنزل محنقًا مقطبًا حتى يلقاه الرسول ، فيلمح ما به من تغير حال ويعلم سره فيشفق أن يدعه على ما هو فيه وأن يدع لزوجه مظنتها فى صدقه . ويذهب معه إلى بيته فيقول للمباركة : «ماحدثك عنى بلال فقد صدق . بلال لايكذب ، فلا تغضبى بلالا» .

فإذا المولى الأمين هانئ قرير .

وقد أثر عنه هذا الصدق بين الصحابة فكانوا يشكون فى أبصارهم ولا يشكون فى روايته ونقله . ويروون عنه رواية اليقين فى شئون الصلاة والصيام .

ففى صحراء العرب حيث يضىء النهار إلى ما بعد غروب الشمس وتشيع لمحات النور قبل مطلعها كان بعض المسلمين يترددون فى مواعيد السحور والإفطار فيقولون : إنا لنرى الفجر قد طلع ، أو يقولون . ما نرى الشمس ذهبت كلها بعد ، فإذا سمعوا من بلال أن رسول الله أكل أو أنه ترك رسول الله يتسحر فالقول ما قال بلال ، وليس للشك فى ضوء النهار مكان .

وقد لزمت بلالاً عادة الصدق فى كل كلام يبلّغه المسلمين عن النبى أو يبلغه إليهم فى شأن من عامة الشئون وخاصتها ، فلما رجاه أخوه فى الإسلام – أبو رويحة – أن يسفر له فى زواجه عند قوم من أهل اليمن لم يزد على أن قال : «أنا بلال بن رباح وهذا أخى أبو رويحة. وهو امرؤ

سيئ فى الخلق والدين ، فإن شئتم أن تزوجوه فزوجوه ، وإن شئتم أن تدعوا فدعوا . . . »

فزوجوه فكان حسبهم عنده أن يقبل الوساطة ولا يرده أو يموه عليهم أوصافه !

وقد كان من ولائه لأبى رويحة هذا أن ضم ديوان عطائه إليه حين خرج إلى الشام . فلما دون الفاروق دواوين الصحابة سأله : إلى من تجعل ديوانك يا بلال ؟ قال : إلى أبى رويحة « لا أفارقه أبداً . للأخوة التى كان رسول الله عقد بينه وبينى » .

وذاك أن رسول الله قد آخى بينهما قبل الهجرة إلى المدينة كما آخى بين غيرهما من صحابته الأوفياء . فكانت أخوة العمر عنده من فضل الولاء لرسول الله . وكان أحب الناس إليه وأولاهم برعيه من أمره رسول الله أن يحبه ويرعاه .

* * *

وقد عرف له النبى عليه السلام هذه الخصال التى تتجمع كلها فى صفة الأمانة – وهو هو قائد الرجال الخبير بمناقب النفوس – فأقامه فى موضع الثقة وائتمنه على مال المسلمين وعلى طعامه ومؤنته وشخصه ، واستصحبه فى غزوه وحجه وحله وترحاله ، وأسلمه العَنَزة يحملها بين يديه أيام العيد والاستسقاء ، ولم يعرف أحدٌ من الصحابة لازمه عليه السلام كما لازمه هذا المؤذن الذى يقيم معه الصلاة وهذا الأمين الذى يحفظ له المال والطعام ، وهذا الرفيق الذى كان يظله بالقبة والستار من لفحات الهجير فى رحلات الصيف ، وربما تقدمه فركب ناقته « القصواء » التى قلما كان يركبها سواه عليه السلام ولم يدخل الكعبة معه بعد فتح مكة غير

عثمان بن طلحة صاحب مفاتيحها وأسامة بن زيد مولاه ، وبلال .

ودامت هذه الصحبة حتى قبض عليه السلام وحتى دفن فى ثراه .

فكان بلال هو الذى ذكر واجب الحنان المكلوم فى ذلك الموقف الأليم ، فحمل القربة ودار حول ذلك الثرى الشريف يبلله بالماء .

* * *

وعلى هذا الحنان فى طويته لمولاه العظيم كان للرجل ضميرٌ يعرف الإصرار على الرأى كأشد ما عرف مؤمن بعقيدة ونافر من رذيلة .

وربما كا فى الإصرار شىء من عناد بنى جلدته أبناء الحبشة وأبناء السلالة السوداء . إلا أن العناد خصلة ذات لونين أحدهما يحمد ويفيد وثانيهما يذم ويضير .

فالعناد أحد لونيه ثبات على الصواب والعقيدة ، وفى لونه الآخر ثبات على الخطأ والهوى ، ولم نعرف من العناد فى تاريخ بلال إلا أجملَ اللونين وأشبهها بقوة الأسر وخلائق الأمناء .

من ذلك عناده للمشركين حين ساموه العذاب ليفتنوه عن دينه ويكرهوه على سب نبيّه كما تقدم فى وصف إسلامه ، ومنه إصراره على ترك الأذان لغيره حين وقر فى نفسه أن أذانه بعد رسول الله نقص فى الوفاء ، وربما كان منه أصراره على الجهاد والسفر من المدينة إلى الشام حين سأله الخليفة البقاء فقال له فى رواية مشهورة : « إن كنت أعتقتنى لنفسك فاحبسنى ، وإن كنت أعتقتنى لله عز وجل فذرنى أذهب إلى الله عز وجل » وأبى إلا أن يمضى حيث أراد .

ولاشك أن الرحمة بالاعداء أمر لاينتظر من رجل طال عهده وعهد قومه وآبائه وأجداده بقسوة الطغاة وعذاب اللؤماء، فإن رحمة رجل

كهذا لمن أحسنوا إليه وسالموه خلق مفهوم لا غرابة فيه أما الخلق الذى يستغرب منه حقًا فهو رحمته فى ميدان قتال أو رحمته خاصة لمن أفرط فى الإساءة إليه .

ولهذا لا نستغرب ماروى عن بلال بعد وقعة خيبر وما روى عنه بعد وقعة بدر مع المشركين . ومنهم أظلم الناس له وأقساهم عليه .

فلما افتتح النبى حصن القموص بخيبر جىء له بصفية بنت صاحب الحصن وقريبة لها دون سنها . فأرسلها عليه السلام مع بلال إلى رحله . فمر بهما بلال على القتلى من قومها فصاحت البنت الصغيرة صياحاً شديداً ولطمت على وجهها . وعلم النبى بما صنع فقال له عاتباً : أنزعت منك الرحمة يا بلال حين تمر بجارية حديثة السن على القتلى ؟ فكان عذر بلال الذى اعتذر به جوابه : يا رسول الله ما ظننت أنك تكره ذلك . وأحببت أن ترى مصارع قومها !

أما فى وقعة بدر فقد كان عذره أوضح وأسلم من عذره فى وقعة خيبر .

فقد رأى أمية بن خلف وابنه بعد الوقعة فى صحبة عبد الرحمن بن عوف يقودهما كما يقاد الأسرى، وقد كانا أشد الناس أيذاء للمستضعفين من المسلمين كما تقدم ، وكان بلال أوفر المسلمين نصيباً من ذلك الإيذاء اللئيم . فما وقعت عينه على أمية حتى صاح بالمسلمين من حوله : رأس الكفر أمية بن خلف . لا نجوت إن نجا . ولم يغن عنه دفاع عبد الرحمن بن عوف بل جعل بلال يهم بقتله ويصيح : لا نجوت إن نجا . لا نجوت إن نجا . حتى اجتمع حولهم خلق كثير ، وضرب أحدهم ابن أمية فوقع صريعاً فإذا بأمية يصيح من الفزع صيحة لم يسمع بمثلها . قال

عبد الرحمن بن عوف : انج بنفسك ولا نجاء بك ! فوالله ما أغنى عنك شيئاً ، ولكن المقاتلين هبروهما بأسيافهم قبل أن يخلص له سبيل إلى الفرار .

وقد يزيد فى وضوح العذر لبلال من هذه القصة أن أمية هذا كان من أحق الناس بالبغض وقلة الرحمة . لأنه كان يعذب المستضعفين تعذيب الجبان اللئيم لا تعذيب الساخط الغيور على عقيدة ، وكان يرهب القتال ولا يعرض حياته لمغامرات الحرب التى أقدم عليها شجعان المشركين . فما هو إلا أن سمع بنذير النبى إياه بالقتل حتى ارتعدت فرائصه وراح يسأل عن المكان الذى توعده بالقتل فيه ، فصارح قومه بالقعود عن القتال وأنه لا يخرج لحرب المسلمين فى غزوتهم تلك وهو مقصود بذلك الوعيد ، ولم يتحرك للخروج حتى جاءه أبو جهل بين الملأ بمجمرة يبخره بها ، وقال له : تجمر يا هذا فانما أنت من النساء .

ولما نشبت المعركة ببدر كان هو وابنه فى طليعة الناكصين عن القتال ، ثم قتل ابنه فكانت صيحته عليه صيحة فزع لا تسمع فى ميدان . فانما كان تعذيبه المسلمين من لؤم الجرأة على الضعيف وهو آمن فى عقر داره ، ولم يكن من لدد العقيدة التى يغار عليها الرجل الشجاع ويلقى الموت هو وأبناؤه من أجلها غير وكلٍ ولا هيّاب . وليس أحق من مثل هذا ببغضاء المنتقم فى ساعة القصاص ، وكفى لبلال عذراً فى هيجة غضبه عليه أنه يعلم إنذار النبى إياه بالقتل وأن أبا بكر هنأه بعد قتله فقال :

هنيئاً زادك الرحمن خيراً لقد أدركت ثأرك يا بلال

وفى غير هذه الهيبة التى تدرك أحلم الناس فى موطن النقمة وحومة

الحرب لم تكن شدة بلال غير حمية الرجل الفطرى التى تبدو منه القسوة وهو لا يعنيها ، وكان فى جملة أحواله مثلا للخلق الوديع والطيبة الرضية وحلاوة النفس والاتضاع ، فكان يخجله أن يسمع الناس يحمدون بلاءه فى صدر الإسلام ويقدمونه على أجلاء الصحابة لثباته وصبره ، فيطرق ويقول : إنما أنا رجل كنت بالأمس عبداً » وكانت قلة دعواه نفحة من نفحات تلك الطيبة الرضية ، فلم يعرف عنه أنه تصدى لتعلم الناس ما يجهلون من أحاديث النبى عليه السلام بعد ملازمته الطويلة وكثرة سائليه والواثقين بصدق ما يرويه ، ولم يزد فى إخباره عن النبى على ما يعنيه من إقامة الصلاة والأذان أو مواعد الإفطار والصيام .

° ° °

وكان بلال ابن قومه فى خلقين آخرين يعرفان فى بعضهم قدماء أو محدثين ، وهما فراسة النظر وحب الراحة أو الضيق بالجهد الشديد .

أرسله النبى عليه السلام مع رعية السحيمى ليرد له ابنه الذى أسره المسلمون ، فلم يفته وهو يقص نبأه على النبى أن يقول : والله ما رأيت واحداً منهما مستعبرًا إلى صاحبه ! فقال النبى ! ذاك جفاء الأعراب .

ووكل إليه النبى وهو مقبل إلى وادى القرى بعد وقعة خيبر أن يوقظه لصلاة الصبح — وكان الحر شديداً ، فنام حتى طلعت الشمس . ثم صلى عليه السلام بمن معه وإن أحدهم ليسلت العرق عن جبينه من حر ذلك اليوم ، فلما سلم قال : كانت أنفسنا بيد الله فلو شاء قبضها وكان أولى بها . ثم التفت إلى بلال فهتف به : مه يا بلال . فبادر بلال معتذراً وهو يقول : بأبى وأمى . قبض نفسى الذى قبض نفسك ! فتبسم عليه السلام .

وإنما تدل هذه السهوة – وإن لم تتكرر – على إيثار الراحة لأنها غلبت كل حذر من تفويت صلاة الفجر حاضرة على النبى وصحبه ، وهو حذرٌ كان ولاشك فى نفس بلال شديداً بل أشد من الشديد .

* * *

وآخر مايروى من أعمال بلال وقفته مع خالد بن الوليد حين أمر الفاروق بسؤاله عن الهبات التى كان يهبها لبعض الشعراء . فقد سكت خالد وأبو عبيدة يسأله عن تلك الهبات أهى من ماله أم من مال المسلمين ؟ وهو معرض لا يجيب . فوثب إليه بلال ثم تناول عمامته ونقضها وعقله بها وخالد لا يمنعه . وسأله : ما تقول ؟ أمن مالك أم من إصابة ؟ فعند ذلك أجاب خالد : بل من مالى . فأطلقه وعممه بيده ، وهو يقول : « نسمع ونطيع لولاتنا ونفخم ونخدم موالينا » .

ذلك آخر ماروى من أعمال بلال فى خدمة الخلافة ، ولكنه يجمع أعماله كلها وخلائقه كلها فى عمل واحد وخلق واحد ، وهو الطاعة الجريئة التى لا تنسى التفخيم والتعظيم إلا فى سبيل طاعة أكبر منها وأوجب . فلم يكن أسرع منه بين شهود الموقف إلى محاسبة خالد بأمر الخليفة وأمر الله ، ولم يكن أسرع منه إلى السرور بتفخيمه وتعظيمه حين فرغ الحساب .

كانت طاعته للمرء الذى يطاع والأمر الذى تجب له الطاعة وهى طاعة القوى الشريف ، وليست بطاعة المسخر الضعيف ، وقد عصى سادته والموت جاثم على صدره ، وفرض الطاعة على من يهابه العصاة . فكان سيد المطيعين ، ولا يشرّف الإنسان إن لم يكن سيد الآمرين إلا أن يكون سيد المطيعين .

الأذان

أشبه الأشياء بالدعوة إلى الصلاة دعوةٌ تكون من معدن الصلاة وتتم على صوت من أصوات الغيب المحجّب بالأسرار : دعوة حية كأنما تجد الإصغاء والتلبية من عالم الحياة بأسرها ، وكأنما يبدأ الإنسان فى الصلاة من ساعة مسراها إلى سمعه ، ويتصل بعالم الغيب من ساعة إصغائه إليها .

دعوة تلتقى فيها الأرض والسماء ، ويمتزج فيها خشوع المخلوق بعظمة الخالق ، وتعيد الحقيقة الأبدية إلى الخواطر البشرية فى كل موعد من مواعد الصلاة ، كأنها نبأ جديد .

الله أكبر . الله أكبر .

تلك هى دعوة الأذان التى يدعو بها المسلمون إلى الصلاة ، وتلك هى الدعوة الحية التى تنطق بالحقيقة الخالدة ولاتومئ إليها ، وتلك هى الحقيقة البسيطة غاية البساطة ، العجيبة غاية العجب ؛ لأنها أغنى الحقائق عن التكرار فى الأبد الأبيد ، وأحوج الحقائق إلى التكرار بين شواغل الدنيا وعوارض الفناء .

المسلم فى صلاةٍ منذ يسمعها تدعوه إلى الصلاة ، لأنه يذكر بها عظمة الله وهى لب لباب الصلوات .

وتنفرج عنها هدأة الليل فكأنها ظاهرة من ظواهر الطبيعة الحية تلبيها الأسماع والأرواح ، وينصت لها الطير والشجر ، ويخف لها الماء والهواء ، وتبرز الدنيا كلها بروز التأمين والاستجابة منذ تسمع هتفة الداعى الذى يهتف بها « إن الصلاة خير من النوم » .

فتخرج كلها إلى الحركة بعد لمحة أو لمحتين ، وتقول كلها إن الحركة صلاة خفية بيد محرك الأشياء ، وإن الصلاة خير من النوم .

وإذا ودع بها الهاتف ضياء النهار واستقبل بها خفايا الليل فهو وداع متجاوب الأصداء ، كأنه ترجمان تهتف به الأحياء أو تهمس به فى جنح المساء ، وكأنه ينشر على الآفاق عظمة الله فتستكين إلى سلام الليل وظلال الأسرار والأحلام .

وإنها لتسمع بالليل لم تسمع بالنهار .

تُسمع والنفوس هادئة كما تسمع والنفوس ساعية مضطربة : توقظ الأجسام بالليل وتوقظ الأرواح بالنهار ، فإذا هى أشبه صياح بسكينة ، وأقرب ضجيج إلى الخروج بالإنسان من ضجيج الشواغل والشهوات .

حى على الصلاة !

حى على الفلاح !

نعم هذا هو الفلاح جد الفلاح ، لأن كل فلاح بغير الإيمان هو الخسار كل الخسار .

* * *

وما يعرف وقع الأذان من شىء كما يعرف من وقعه بمعزل عن العقيدة ومعزل عن العادة والسنة المتبعة ، أوكما يعرف من وقعه فى بدائه الأطفال وبدائه الغرباء عن البلاد ، وعن عقيدة الإسلام .

ففى الطفولة نسمع الأذان ، ولانفهمه ولكننا نميزه حين يحيط بنا بين دعوات هذه الأرض وبين صيحات اللعب وصيحات البيع والشراء : ونؤخذ به ونحن لاندرى بم نؤخذ ، ونود لو نساجله ونصعد إليه ونستجيب دعاءه ، ويفسره المفسرون لنا « بأمر الله » فنكاد نفهم كلمة الأمر ونكاد نفهم كلمة الله ، ولكننا نحار فى البقية ونحيلها إلى الزمن المقبل . . . ثم نقضى السنوات بعد السنوات من ذلك الزمن المقبل ونحن نتعزى من حيرة

الطفولة بأننا مانزال حائرين ، وإن سميت الحيرة بأسماء بعد أسماء وأطلق عليها عنوان بعد عنوان .

وفى الذكريات أصداء تكمن فى النفس من بعيد ويلتفت المرء لحظة من اللحظات فكأنما هو قد فرغ من سماع تلك الأصداء منذ هنيهة عابرة ، ثم التفت على حين غرة ليرقب مصدر ذلك الصدى الذى سرى إليه .

إن أبقى هذه الأصداء فى كل ذاكرة لهى صيحة الأذان الأولى التى نبهت إليها آذان الطفولة لأول مرة ، ومازالت تبتعد فى وادى الذاكرة ثم تنثنى إليه من بعض ثنياتها القريبة ، فإذا المرء من طفولته الباكرة على مدى وثبة مستطاعة ، لو تستطاع وثبة إلى ماض بعيد أو قريب

أما الغرباء عن البلاد وعن عقيدة الإسلام فما يلفتهم من شىء من شعائر العبادة الإسلامية كما يلفتهم صوت الأذان على المنائر العالية ، كيفما اختلف الترتيل والتنغيم .

يقول إدوارد وليام لين صاحب كتاب « أحوال المصريين المحدثين وعاداتهم » إن أصوات الأذان أخاذة جدا ولاسيما فى هدأة الليل .

ويقول جيراردى نرفال فى كتابه سياحة بالمشرق : « إننى لأول مرة سمعت فيها صوت المؤذن الرخيم الناصع خامرنى شعور من الشجو لايوصف . وسألت الترجمان : ماذا يقول هذا الهاتف ؟

فقال : إنه ينادى أن لا إله إلا الله . قلت : فماذا يقول بعد هذا ؟

فقال : إنه يدعو النيام قائلا : يامن ينام توكل على الحى الذى لاينام . . . »

وأنشأ الكاتب المتصوف « لافكاديوهيرن » La Fcadio Hearn رسالة وجيزة عن المؤذن الأول — أى بلال بن رباح ستأتى ترجمتها بعد هذا الفصل فقال : « إن السائح الذى يهجع لأول مرة بين جدران مدينة شرقية ، وعلى مقربة من إحدى المنائر، قلما تفوته خشعة الفؤاد لذلك الجمال الوقور الذى ينبعث به دعاء المسلمين إلى الصلاة . . . وهو لاشك يستوعب فى قلبه — إذا كان قد هيأ نفسه للرحلة بالقراءة والمطالعة — كلّ كلمة من كلمات تلك الدعوة المقدسة ، ويتبين مقاطعها وأجزاءها فى نغمات المؤذن الرنانة ، حيثما أرسل الفجر ضياءه المورد فى سماء مصر أو سورية وفاض بها على النجوم . وإنه ليسمع هذا الصوت أربع مرات أخرى قبل أن يعود إلى المشرق ضياء الصباح : يسمعه تحت وهج الظهيرة اللامعة ، ويسمعه قبيل غياب الشمس والمغرب يتألق بألوان القرمز والنضار ، ويسمعه عقيب ذلك حين تنسرب هذه الألوان الزاهية فى صبغة مزدوجة من البرتقال والزمرد ، ثم يسمعه آخر الأمر حين تومض من فوقه ملايين المصابيح التى ترصع بها تلك القبة البنفسجية فوق مسجد الله الذى لايزول . ولعله يسمع فى المرة الأخيرة عند نهاية التنغيم كلمات مقنّعة بالأسرار جديدة على أذنيه ، فإذا سأل عنها ترجمانه كما فعل جيرادى نرفال أجابه ولاشك بتفسير كذلك التفسير : يامن تنام توكل على الحى الذى لاينام . . . . عظات جليلة تعيد إلى الذاكرة تلك الآيات التى ينقشونها فى المشرق على بعض الحجارة الكريمة ومنها « لاتأخذه سِنة ولانوم » . . . فإن كان الترجمان ممن يعون طرفاً من تاريخ الإسلام فلعله ينبئه أن المؤذن الأول — أول من رتل الدعاء إلى الصلاة — كان الخادم المقدس الذى اصطفاه نبى الإسلام لهذه الدعوة ،

بلال بن رباح ، صاحب الضريح الذى يشار إليه للسائح فى ناحية من دمشق حتى هذا اليوم » .

* * *

وقد لمسنا نحن أثر الأذان البالغ فى روع كثير من السائحين والسائحات الذين ينزلون ببلدتنا أسوان خلال الشتاء أو يمرون بها فى الطريق من السودان وإليه .

فإنهم كانوا يصلون إلى أسوان وقد سمعوا الأذان مرات فى القاهرة والإسكندرية وربما سمعوه فى غيرهما من البلدان الإسلامية ولكنه كان يفاجئهم بجدة لاتبلى كلما طرق أسماعهم بالليل أو النهار — ولاسيما فى أيام الجمعة . وكان من المصادفات الطيبة أن مؤذن الجامع الأكبر بالمدينة كان حسن الصوت منطلق الدعاء يمزج الغيرة الدينية بالغيرة الفنية فى أذانه ، فكان يخيل إلينا وهم يصغون إليه أنهم يتسمعون هاتفاً من هواتف الغيب يطرق الأسماع فى وقت رتيب ، أو يترقبون طائرا من طوائر الهجرة التى تأتى فى الأوان ولكن كما يأتى كل شىء غريب .

وكان من عادات المؤذنين التى لبثوا يعيدونها فى شهر رمضان إلى عهد قريب أن يدقوا طبول السحور على المنائر العالية فى الهزيع الأخير من الليل . فشكا بعض النازلين بالفنادق القريبة من المنارة وترددوا فى تبليغ شكواهم إلى رجال الحكومة لأنهم حسبوا هذه الطبول شعيرة من شعائر الإسلام ، فلما سأل عنها بعض مثقفيهم وقيل لهم إنها عادة من عادات البلد وليست شعيرة من شعائر الدين تقدموا برجائهم وقالوا : إننا لانشكو من الأذان لأنه لايقلقنا ولايزال يسرى إلينا فى ساعة الفجر كما يسرى الحلم الجميل . ولكننا نقلق من هذه الطبول التى تدق فوق رءوسنا ، وكنا

نحتملها لوعلمنا أنها شعيرة لاتبديل لها . ولكننا علمنا أنها تبدل فى كل بلد إسلامى على حسب عاداته ، وأن المدن الكبرى تستبدل بها طبولا صغيرة تدق على الأبواب : فاسمحوا لنا أن نهدى إلى البلد بعض هذه الطبول .

وكانت هذه الطبول مما يباع فى كل موسم للسائحين على أحجام مختلفة . لأنها كانت تستخدم فى عهد الدراويش بالسودان ، إما لجمع الجند أو لتنبيه الغافلين أو للتوقيع والتنغيم ، وكانت ملابس الدراويش وأسلحتهم وأدوات معيشتهم مما يبحث عنه السائحون فى أسواق البلدة ، فتبرعوا بالطبول الصغيرة فرحين لأنها تنقذهم من قرع الطبول حين يختلط بأصوات المؤذنين ، فيقلقهم ويشوه عندهم جمال الأذان الخفيف على أسماع النيام .

* * *

وقد كانت هذه الطبول وشيكة فى بداية الأمر أن تقوم مقام الأذان فى دعوة المسلمين إلى الصلاة .

إذ لم يكن الأذان كما نسمعه اليوم معروفاً قبل انتشار الإسلام فى مكة والمدينة ، وإنما كان المسلمون طائفة قليلة يدعون إلى الصلاة الجامعة بالنداء يُسمع من قريب ، فلما صرفت القبلةُ إلى الكعبة فكر المسلمون فى دعاء إلى الصلاة يسمعه المنتشرون بالمدينة من بعيد .

ومن جملة الروايات التى جاءت فى طبقات ابن سعد وغيرها يُفهم أنهم كانوا قبل أن يؤمر بالأذان ينادى منادى النبى عليه السلام : الصلاة جامعة ! فيجتمع الناس . فلما صرفت القبلة إلى الكعبة تذاكر المسلمون الأمر فذكر بعضهم البوق وذكر بعضهم الناقوس وذكر بعضهم ناراً توقد كنار القرى ، ثم تفرقوا على غير رأى ومنهم عبد الله بن زيد

الخزرجى . . . فلما دخل على أهله فقالوا : ألا نعشيك ؟ قال : لاأذوق طعاماً . فإنى قد رأيت رسول الله قد أهمه أمر الصلاة ، ونام فرأى أن رجلامرَّ وعليه ثوبان أخضران وفى يده ناقوس . فسأله : أتبيع الناقوس ؟ فقال : ماذا تريد به ؟ قال : أريد أن أبتاعه لكى أضرب به للصلاة لجماعة الناس . فأجابه الرجل : بل أحدثك بخير لكم من ذلك . تقول : الله أكبر . أشهد أن لا إله إلا الله . أشهد أن محمداً رسول الله . حى على الصلاة حى على الفلاح . الله أكبر . الله أكبر . لا إله إلا الله . ونادى الرجل بذلك النداء وهو قائم على سقف المسجد ثم قعد قعدةً ثم نهض فأقام الصلاة .

فلما استيقظ عبد الله بن زيد من منامه ذهب إلى النبى عليه السلام فقص عليه مارأى فقال له : قم مع بلال فألق عليه ماقيل لك وجاء الفاروق بعد ذلك فقص على النبى مناما يشبه ذلك المنام .

وجرى الأمر فى الدعوة إلى الصلاة منذ ذلك اليوم على الأذان كما تسمعه الآن ، وزاد بلال فى أذان الصبح « الصلاة خير من النوم » فأقرها النبى عليه السلام ، ويبقى النداء فى الناس بالصلاة الجامعة للأمر يحدث فيحضرون له يخبرون به مثل فتح يقرأ أو دعوة يدعون إليها ، وإن كان فى غير وقت الصلاة .

ولا اختلاف فى صيغة الأذان بين الطوائف الإسلامية جمعاء . . . إلا أن الشيعة يضيفون إليه ، « حى على خير العمل » مع حى على الصلاة وحى على الفلاح . ويردد المالكية التكبير مرتين بدلا من أربع مرات .

ولااختلاف كذلك فى جواز التلحين والترجيع فى الأذان مالم يخل

بنطق الكلمات ومخارج الحروف . إلا أن الحنابلة يعلنون الأذان بغير تلحين ، ويتصرف الأحناف فى بعض الترجيعات .

وقد ندب بلال بن رباح للأذان من لحظته الأولى فلم يسمع لأحد أذانٌ قبله ولم يسبقه إلى ذلك سابق فى تاريخ الإسلام ، وهو شرف عظيم . لأن محمد بن عبد الله كان إمام المسجد الذى كان مؤذنه بلال بن رباح .

ومن المتفق عليه فى أقوال الصحابه أن بلالا كان محبب الصوت إلى أسماع المسلمين ، وأنهم كانوا يقرنون دعوته بصلاة النبى بهم فيزيدهم هذا خشوعاً لسماع صوته فوق خشوع .

على أننا نقرأ فى أنباء فتح مكة أن رهطاً من المشركين كانوا ينكرون نداءه ويتساءلون : أما وجد محمد غير هذا العبد ينهق على ظهر الكعبة ؟ وكانوا يستكبرون من رجل كائناً من كان أن يعلو ظهر البيت الذى لم يصعد إليه أحد فى الجاهلية . فهالهم أن يروا « عبداً » يصعد إليه ويجهر بذلك النداء .

قال بعضهم للحارث بن هشام : ألاترى إلى هذا العبد أين صعد ؟ فلجأ الرجل إلى حكمة المضطر وقال : دعه : فإن يكن الله يكرهه فسيغيره » .

وكان الحارث بن هشام وأبو سفيان بن حرب وعتاب بن أسيد جلوساً بفناء الكعبة يوم أمر النبى بلالا أن يصعد إلى ظهر الكعبة فيقيم الأذان . فقال عتّاب : لقد أكرم الله أسيداً ألا يكون سمع هذا فيسمع منه مايغيظه ، وقال الحارث بن هشام : أما والله لو أعلم أنه محق لاتبعته ،

وأنكر أبو سفيان ماسمع أو قيل فى بعض الروايات أنه جمجم قائلا : لاأقول شيئاً . ولو تكلمت لأخبرت عنى هذه الحصا » .

وقبل أن نحيل هذا الإنكار إلى شيء يؤخذ مأخذ النقد ينبغى أن نذكر أن ذلك الوصف جاء من المشركين الذين كانوا خلقاء أن ينكروا أول أذان يرتفع فى سماء مكة ولو ترنمت به الملائكة ، تجاوبت به سواجع الأطيار، وأنهم سمعوه زعيقًا و «نهيقًا» كما قالوا لأنهم سمعوا شيئًا لايطيقونه ولايستريحون إليه . وكانت بهم عنجهية السادة فى النظر إلى العبيد، وكان لبلال عندهم وتر معروف بمن قتل من سادات مكة فى غزواته مع النبى عليه السلام .

فإذا رددنا إعجاب المسلمين بصوت المؤذن الأول إلى الخشوع ثم إلى ذكر النبى الحبيب ، ورددنا كره المشركين إياه إلى النفرة ثم إلى العنجهية والعداء . فقد بقى شيء واحد يتفق عليه هؤلاء وهؤلاء وهو جهارة الصوت وابتعاد مداه فى أجواز الفضاء ، ولاحاجة بنا إلى العناء فى الموازنة بين خشوع المسلمين وعداء المشركين لنقول إن اختيار النبى إياه يدعوه ويدعو المسلمين دعوة عامة يسمعها كل يوم خمس مرات — هو الشهادة لصوت المؤذن الأول بالسلامة من النفرة والنشوز المعيب . فما عهد محمد عليه السلام خاصة إلا أنه كان يحمد المنظر الحسن . وكان ينكر كل نكير ويستريح إلى كل جميل .

المؤذن الأول

كتب عن الخلفاء الراشدين وكبار القادة والولاة من صحابة النبى عليه السلام كلام كثير باللغات الأوربية فى أثناء الكتابة عن تاريخ الإسلام . ولكن الذى كتب عن الصحابة ممن لم يتولوا الحكم ولا اشتركوا فى السياسة العامة – كبلال بن رباح – جدُّ قليل ، وبين هذا القليل الذى كتب عن بلال خاصة فصلٌ فى اللغة الإنجليزية للأديب القصصى لفكاديو هيرن Lafcadie Hearn الذى عمل حيناً فى الصحافة الأمريكية وقضى زماناً فى جزر الهند الغربية التابعة لفرنسا ثم جال بين بلاد الشرق واستقر باليابان وبنى فيها بزوجة يابانية ومات هناك سنة ١٩٠٤ بعد أن قضى حياته الأدبية كلها هائماً بنفحات الشرق الروحية سواء هبت عليه من بلاد العرب أو من الصين أو اليابان .

ولاشك أن ترجمة هذا الفصل إلى العربية ترده إلى اللغة التى هى أحق به وأولى . وتعد مناسبةُ نقله إلى العربية سانحةً كل السنوح فى صدد الترجمة لبلال رضى الله عنه برسالة مستقلة به مقصورة عليه . وهو عدا ذلك فصل قيم يفيض بالعطف الإنسانى والروح الشعرية والفكاهة الأدبية ، ويضيف كثيراً إلى علمنا بأثر الأذان الإسلامى فى نفوس الأدباء الغربيين ، ولا سيما الأدباء من طراز هيرن الذين أظمأتهم الحضارة العصرية وتشوقت نفوسهم إلى الرى الروحانى من ينابيع أخرى غير ينابيع أمريكا وأوربا .

وقد مهد هيرن لفصله عن « المؤذن الأول » بأبيات الشاعر إدوين أرنولد Edwin Arnold التى يقول فيها مخاطباً العزة الإلهية :

« لو أن عابديك اليوم على الأرض طاف بهم طائف من الفناء – فجاءة وصمت كل مؤذن يرفع الصوت بالتكبير فى سكينة السماء – لما

خلت الدنيا بعد هذا من آيات تشهد بوجودك على الأرض وفى أغوار الماء . نعم . . . ولو ذهبت هذه وذهبت الأرض معها لبقيت لك آيات فى أعالى السماء أعظم وأسمى . إذ كل شارقة فوقنا من تلك الشموس التى تشتعل إلى مطلع النهار وتلك الكواكب التى يعود بها الليل كل مساء – هى يارب « دراويشك » التى تدور فى حلقة الذكر حول عرشك الوضّاء » .

ثم قال هيرن : « إن السائح الذى يهجع لأول مرة بين جدران مدينة من مدن الشرق على مقربة من إحدى المنائر على المساجد الجامعة – قلما تفوته خشعة الفؤاد لذلك الجمال الوقور الذى ينبعث به دعاء المسلمين إلى الصلاة ، وهو لاشك يستوعب فى قلبه – إذا كان قد هيأ نفسه للرحلة بالقراءة والمطالعة – كل كلمة من كلمات تلك الدعوة المقدسة ، ويتبين مقاطعها وأجزاءها فى نغمات المؤذن الرنانة حينما أرسل الفجر ضياءه المورّد فى سماء مصر أو سورية وفاض بها على النجوم . وإنه ليسمع هذا الصوت أربع مرات أخرى قبل أن يعود إلى المشرق ضياء الصباح : يسمعه تحت وهج الظهيرة اللامعة ويسمعه قبيل غياب الشمس والمغرب يتألق بألوان القرمز والنضار ، ويسمعه عقيب ذلك حين تتسرب هذه الألوان الزاهية فى صبغة مزدوجة من البرتقال والزمرد ، ثم يسمعه آخر الأمر حين تومض من فوقه ملايين المصابيح التى ترصع بها تلك القبة البنفسجية فوق مسجد الله الذى لا يزول ، ولعله يسمع فى المرة الأخيرة عند نهاية التنغيم كلمات مقنّعة بالأسرار جديدة على أذنيه . فإذا سأل عنها ترجمانه كما فعل جيرار دى نرفال أجابه ولاشك بتفسير كذلك التفسير : يامن تنام توكل على الحى الذى لا ينام . . . عظات جليلة تعيد

إلى الذاكرة تلك الآيات التى ينقشونها فى المشرق على بعض الحجارة الكريمة ومنها « لاتأخذه سنة ولا نوم » . . . فإن كان الترجمان ممن يعون طرفاً من تاريخ الإسلام فلعله ينبئه أن المؤذن الأول – أول من رتل الدعاء إلى الصلاة – كان الخادم المقدس الذى اصطفاه نبى الإسلام لهذه الدعوة – بلال بن رباح – صاحب الضريح الذى يشار إليه للسائح فى ناحية من دمشق حتى هذا اليوم .

أما بلال هذا فكان أسود إفريقيا من أبناء الحبشة قد اشتهر بقوة يقينه وهو يتخذ دين الإسلام ، وبغيرته على الدعوة النبوية وجمال النغم فى ترجيع صوته – ذلك الصوت الذى تناوله ومد فيه وكرره كل مؤذن فى الإسلام منذ أكثر من ألف ومائتى عام .

وقد رجّع بلال أذانه قبل أن ترتسم فى الذهن صورة المنارة الأولى ، وقبل أن يؤثر القوم اختيار المؤذنين من العميان مخافة أن يرمق المؤذن بعينه منظراً محرماً وهو يطل من علٍ على سقوف المدينة .

واليوم ترتفع إلى السماء منائر لاعداد لها فى كل موطن من مواطن الإسلام حتى واحات الصحراء ، وقد تقوم على بناء بعضها أيد جاهلة بميزان البناء فيخيل إلى من يراها أنها تتلوى من الوجد ، كمئذنة « أوجلة » التى رآها فكتور لارجو Largau فى سنة ١٨٧٧ .

أما الكلمات التى يرددها المسلمون فى أنحاء عالم الإسلام من حيث تقوم بنى القرميد التى ترتفع على قبور الصحراء إلى تلك المنائر السحرية الحالمة التى ترتفع على مسجد « أجرا » عند ضريح « تاج محل » بالهند – فهى بنصها وفصها تلك الكلمات التى ترنم بها صوت بلال المكين .

ولا تزال للمؤذن شروط ترعى حتى اليوم ليسمح له بأداء الأذان .

فعليه أن يحفظ القرآن وأن ينزه اسمه وسمعته عن كل سوء ، وأن يكون له صوت واضح جهير ولهجة فصيحة ومخارج للحروف صحيحة ، ولكن شروط الصوت الحسن التى كانت تطلب من المؤذن فى صدر الدعوة المحمدية والمسلمون على ذكر من صوت بلال قد كانت أندر وأصعب مما اكتفى به بعد ذلك . وقد روى الشاعر الفارسى الأشهر مصلح الدين السعدى فى كتابه بستان الورد غير نادرة واحدة تدل على آراء أبناء عصره فيما يرجع إلى اختيار المؤذنين وقراء آى الذكر الحكيم .

قال فى بعض تلك النوادر إن مؤذناً فى سنجار تعوّد أن يؤدى الأذان أداء صحيحاً ولكن بصوت كريه إلى كل من سمعوه ، وكان صاحب المسجد أميراً عادلا لايسىء فى عمل من أعماله ، فلم يشأ أن يجرح فؤاد المؤذن المسكين ، وخاطبه على نحو يرضيه فقال له : ياسيدى . إن لهذا المسجد مؤذنين أقدمين يعطى كل منهم خمسة دنانير . فهل لك فى عشرة دنانير تأخذها أنت على أن تترك لهم مهمة الأذان فيه ؟ . . . فقبل الرجل عرض الأمير وغادر المدينة إلى حيث شاءت له المقادير .

إلا أنه لم يلبث غير قليل حتى قفل إلى الأمير قائلا : لقد ظلمتنى يامولاى إذ قد زينت لى أن أترك هذا المسجد من أجل عشرة دنانير . فإنهم قد عرضوا علىّ عشرين ديناراً حيث كنت على أن أفارقهم فأبيتها . . . فابتسم الأمير وقال : لا يخدعوك إذن . . فإنى لأحسبهم معطيك خمسين ديناراً أو يزيد على ذلك إذا أصررت على البقاء هناك !

وفى الكتاب نادرة أخرى لاتقل عن هذه فى طرافتها ، يزيدنا فهماً لها أن نذكر أن الأسلوب العربى المأثور فى تلاوة القرآن يكاد يعلو على كل أسلوب معروف فى التلاوات الدينية . وخلاصة النادرة أن قارئاً من

حفاظ الكتاب كان يجوّد الآيات بصوت غير جيد . فمر به رجل فطن وسأله : كم أجرك على هذه القراءة ؟ فقال الحافظ : لاشىء ! قال الرجل : وفيم إذن عناؤك هذا ؟ قال : حبا لله ! قال الرجل الفطن : حبا لله إذن لا تقرأ يرحمك الله .

* * *

وبدأ بلال حياته عبداً لأنه كان وليد جارية حبشية ، ولم يعرف عن نشأته فى الطفولة غير النزر اليسير . ومن وصف سيروليام موير إياه يظهر أنه كان فاحم السواد كثيف الشعر وكانت لوجهه ملامح الزنوج ، وأنه كان طويلا أجنأ كأنه الجمل ، لا يروق النظر ولكنه شديد الأسر مفتول الجسد متين الأعصاب .

وقد كان لدعوة محمد الأولى أثر عميق فى قلوب عبيد مكة ، لأن هؤلاء القوم الغرباء فى ربقة العبودية بين أناس غير أهلهم قد تلقوا ولا ريب دعوة النبى إلى الأبوة العليا التى تكلأ الناس جميعاً كما يتلقى الجريح بلسم الشفاء والحزين سلوة العزاء .

ولعل بلالا كان أول من دان بالإسلام من بنى جلدته ، ولذلك قال النبى عنه إنه أول ثمرة من ثمرات الحبشة ، ولعل العبد الصغير قد تلقن من والدته السوداء شيئاً من تلك الخواطر الفجة التى شاعت فى الحبشة باسم الديانة المسيحية فى القرن الرابع فهيأت ذهنه لقبول وحدانية الإسلام .

وماهو إلا أن بدأت فترة الاضطهاد حتى انصب أشده وأقساه على هؤلاء العبيد . فقد كانت سنة العرب منذ عهد بعيد أن يحمى الرجل ذوى قرباه ولو كلفته حمايته بذل الحياة . فمن سفك دم عربى فهو غير آمن

أن يرتد عليه أهله بالثأر وأن يستتبع ذلك حرباً سجالاً بين العشيرتين إلى زمن طويل . ومن ثم كان محمد وصحبه الأحرار يأمنون بعض الأمان على أنفسهم من سطوة التنكيل العنيف . ولم يكن للعبيد مثل هذه الحماية ، فتعاورتهم الأيدى بالضرب وتلقوا نذر الموت وذاقوا أمر العذاب معرضين لنيران القيظ فى شمس الجزيرة العربية السافعة . فكانت غواية الماء البارد والظل الوارف والطعام الشهى تحت هذا العذاب الذى يضاف إليه عذاب الجوع والظمأ أشد من أن تدفعها عزية أولئك المساكين . . . فازالوا واحداً بعد واحد يتفوهون بالعبارات التى كانت تملى عليهم سباً لنبيهم ولو خرجت من الشفاه دون القلوب ، وجعلوا يقسمون باللات والعزى على صدق مايقولون ، وطالما عاد بعضهم فبكى ندماً على مافرط منهم فى تلك المحنة النكراء .

ولكن النبى قد استنزل لأولئك المساكين عزاء وافياً بما ذكره القرآن عنهم ، حيث جاء فيه : « إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون . من كفر بالله من بعد إيمانه ، إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ، ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم » .[١]

وقد ظل بلال وحده ثابت القلب واللسان فلم يصبأ ولم ينل من عقيدته ألم الضرب ولا حر الظمأ ولا طول التعريض للشمس على بطاح مكة الملتهبة ، وعجزت كل هذه المحن أن تثنى عزيمته الحديدية ، فلم يكن له جواب على كل أمر يتلقاه من معذبيه إلا أن يردد قوله : أحد ! أحد ! مشيراً إلى وحدانية الله الذى ليس له شريك .

هذه الفترة فى حياة بلال أيام دخوله فى الإسلام هى التى اختارها

(١) سورة النحل ١٠٥، ١٠٦

الشاعر الفارسى فريد الدين العطار للإشادة بها فى كتابه منطق الطير ، فقال : « إن بلالا قد تلقى على جسده الهزيل ضربات العصى من الخشب ، والسياط من الجلد ، فتمزق إهابه وسال الدم من جراحه ولم يمسك قط عن توحيد الله الذى لا إله غيره » .

واتفق ذات يوم – والحبشى المسكين يتلظى من ألم ذاك العذاب – أن عبر به رجل نحيف البدن صغير القد جميل الملامح واسع الجبين فشهد فيمن يشهدون ثبات بلال وشدة عذابه .

وكان ذاك الرجل النحيف هو التاجر عبد الله بن عثمان أبى قحافة ، ويعرف فى التاريخ الإسلامى باسم أبى بكر صديق النبى الحميم وزميله فى ذلك الكهف الذى تقول الرواية إن العناكب نسجت على مدخله خيوطها لتخفى اللاجئين إليه عمن يتعقبونهما ، ويدعى أبو بكر أيضاً بالصديق أى المخلص الوفى ، وكان أبا السيدة عائشة التى قدر لها أن تقترن بالنبى وقدر لأبيها أن يخلف النبى على رعاية شأن المسلمين بعد وفاته ، وكان إلى ذلك الحين قد أنفق كثيراً من ثروته التى تبلغ أربعين ألف درهم فى شراء العبيد الذين سيموا العذاب على أيدى سادتهم من أجل دخولهم فى دين الإسلام ، ومعظمهم رجال مهازيل أو نساء ، فكان أبو قحافة يؤاخذه لأنه ينفق ماله فى إعتاق النساء والضعفاء ويقول له : هلا أنفقته فى إعتاق الأقوياء الذين يشدون أزرك ويدرءون عنك عدوك ؟ وكان أبو بكر يجيبه : كلا . ياأبت . إنما أريد بهم وجه الله .

ويقول الرواة إن هذا البذل السخى فى سبيل التقوى قد أفقر الرجل حتى لبس الثياب الخشنة من شعر المعز الذى يلفق بالسلا .

فلما شهد بلالا فى ذلك العذاب لم يطل صبره على رؤيته بتلك الحال

وأخذ لتوه يساوم أمية بن خلف وأبىّ بن خلف فى ثمنه فباعاه بعباءة وعشرة دنانير .

وقليلا ماكان يخطر على بال أحد من شهود تلك الصفقة ، أن يوماً من الأيام سيأتى على أمية وابنه يسألان فيه الرحمة من عبدهما الذى ضنا عليه بكل رحمة فلا ينالانها . فما انقضت عشر سنين على ذلك اليوم حتى ظفر بلال بصاحبيه وسنحت له فرصته بعد وقعة بدر الحامية ، فوقعت عليهما عيناه بين أسرى قريش ، وشفى قلبه أن ينظر إليهما وهما يذبحان على مشهد منه ، لأن الإسلام لا يأمر الذين يدينون به أن يجزوا الشر بالخير .

وقد كان بلال فى الحقيقة أول عبد قيم أطلقه أبو بكر ، فأرسله عتيقاً لوجه الله .

وكان بلال رجلا قوياً ، فلا يفهم وصفه بالهزال فى قصيدة الشاعر الفارسى إلا على معنى الهزال الذى توصف به الطبيعة البشرية بالقياس إلى قوة الروح .

ولم يلبث لسان الكذب والوشاية أن قال قولته فى السبب الذى بعث أبا بكر إلى شراء الحبشى المعذب ، فزعم من زعم أنه توخى الفائدة ولم يتوخ التقوى والصلاح ، وكانت هذه الأكذوبة خليقة أن تسرى مسراها فى البيئة التى عهدت ذلك التاجر الورع زماناً وهو الأريب الخبير بتصريف التجارة ، ولكن محمداً كان ينكر مايلغطون به ويوسع القائلين به تأنيباً وملامة ، وفى ذلك يقول الكتاب من سورة الليل : « والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى ، وما خلق الذكر والأنثى . إن سعيكم لشتى ، فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى ، وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى ، ومايغنى عنه ماله إذا

تردى ، إن علينا للهدى ، وإن لنا للآخرة والأولى . فأنذرتكم ناراً تلظى ، لا يصلاها إلا الاشقى ، الذى كذب وتولى ، وسيجنبها الأتقى ، الذى يؤتى ماله يتزكى ، ومالأحد عنده من نعمة تجزى ، إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ، ولسوف يرضى » .(١)

ومن ثم أصبح بلال خادماً أميناً لمحمد « عليه السلام » وكتب له أن يساهم بنصيب فى نشر دعوة الإسلام .

وتزعم بعض الروايات أن بلالا عاد بعد هجرة النبى فوقع فى أسر قريش فعذبوه وضاموه ، ولكنها رواية لا يوثق بها فى رأى المراجع التى تعتبر حجة فى تاريخ الدعوة الإسلامية ، وإنما نلتقى ببلال مرة أخرى بعد عتقه فى المدينة حيث كان المؤذن الأول بعد الاتفاق على الأذان .

* * *

ولم يكن الأذان معروفاً فى مستهل الدعوة الإسلامية حين كان المؤمنون فئة قليلة تقيم إلى جوار نبيها ، وإنما كان الأذان صيحة مسموعة ينادى بها المنادى إلى الصلاة الجامعة .

ثم عرف الأذان بعد بناء مسجد المدينة وتحويل القبلة من بيت المقدس إلى مكة وكعبتها . إلا أن بيت المقدس لم يزل له شأن فى المأثورات الإسلامية ولم يزل عزيزاً فى قلوب المسلمين .

ألا يذكر الذاكرون من علامات الساعة الكبرى أن عيسى بن مريم سيقبل عند حلول الساعة إلى مسجد بيت المقدس قبيل صلاة الفجر فيشرق المسجد بطلعته ويتقدم إلى محراب الإمام فيبهت أولئك الذين يزعمون أنهم من أتباعه حين يعلن بينهم شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ؟

(١) سورة الليل بأكملها

أما كيف خطرت فكرة الأذان فقد كان ذلك بتوفيق عجيب . وفحواه أن النبى حين فرغ من بناء مسجده — الذى يعد على زهادة بنيانه مثالا للأسلوب العربى فى البناء — تبين على الأثر أن دعوة المسلمين إلى الصلاة على النحو الذى اتبعوا قبل ذلك ليست مما يوائم أحوال المسلمين فى ذلك الحين ! لأنها خلو من ذلك الجلال الذى لاغنى عنه فى إقامة الفرائض العامة والشعائر العلنية .

وخطر للنبى فى بداءة الأمر أن يتخذ بوقاً للدعوة إلى الصلاة ، ولكنه لم يشأ أن يحول القبلة عن بيت المقدس ثم يتخذ لدعوة الصلاة أداة كان يستخدمها اليهود فى بعض الصلوات .

ثم خطر له أن يتخذ للدعوة ناقوساً يدق فى ساعات معلومات ، ولكنهم لم يجدوا فى المدينة من يصنع الناقوس المطلوب .

وانه ليوشك أن يتخذ للدعوة ناقوراً من الخشب إذ سنحت فكرة الأذان لبعض الصالحين فى رؤيا المنام .

فقد رأى ذلك الرجل الصالح فيما يرى النائم انه لقى على مقربة من داره — وهو يسرى فى ضوء القمراء — رجلا طوالا فى ثياب خضر بيده ناقوس جميل ، وبدا له أنه قارب الرجل الطوال يسأله أن يبيعه الناقوس . فتبسم الرجل الطوال وراح يسأله : ولأى شىء تريده ؟ فقال له : إنما أشتريه للنبى عليه السلام ليدعو به المسلمين إلى الصلاة .

قال الرجل الطوال . وكأنه يزداد فى مقاله طولا : كلا . بل أخبرك بما هو أصلح وأجدى . فخير من ذاك أن ينادى مناد بالدعاء إلى الصلاة من سقف المسجد كما أصنع . وانطلق فى ندائه بصوت رنان عجيب

سماوى الجلال يبعث الوجل الأقدس فى فؤاد سامعه ، وهو يردد ذلك الأذان كما يردد اليوم من شاطئ إفريقية الغربى إلى تخوم هندستان .

الله أكبر . .

الله أكبر . .

أشهد أن لا إله إلا الله . .

أشهد أن محمداً رسول الله . .

حى على الصلاة . .

حى على الفلاح . .

لا إله إلا الله .

فهب من رقاده والنغم العجيب يتردد فى أذنيه ، وبادر إلى النبى فقص عليه رؤياه ، فسمعها منه النبى كما يسمع الرؤيا الصادقة التى تأتى بالهداية من الله ، وتذكّر تلك الهبة الصوتية النادرة التى خص بها مولاه الوفى بلال ، فأمره أن ينادى إلى الصلاة بتلك الكلمات التى سمعها المسلم الصالح فى منامه ، وكان الليل فى هزيعه الأخير فوعى المؤذن الأول واجب صناعته الجديدة قبل مطلع الفجر ، وماهو إلا أن طلعت بشائر النور الأولى حتى نهض أهل المدينة من نومهم على صوت الحبشى الساحر يردد الأذان من مشرف عال بجوار المسجد . فكان ذلك فاتحة تاريخ المنارة الجميلة التى تتسم بها قبل غيرها ملامح العمارة فى المدن الإسلامية ، وكان مصعد بلال فى تلك الليلة إلى الشرفة المضاءة بنور الكواكب على سقوف المدينة هو أول خطوة على سلم المنارة الباقية قبل ألف ومائتى عام .

* * *

فى خلال تلك القرون جميعاً لم يعرف الإسلام يوماً واحداً لم ترتفع فيه صيحة الأذان إلى الله .

ولاتزال نغمات الأذان تعلّم طريق الساعات لسكان مدائن شتى لاعداد لها : وفى المأثورات أنها ستكون علامةً للساعة التى تقوم فيها القيامة ويظهر فيها المهدى المنتظر – مسيح الديانة الإسلامية – فيعلن الأذان بصوت جهورى يدوّى فى أنحاء العالم بأسره !

وما برحت دعوات الصلاة تستجاب فى العالم الإسلامى بدقة يدهش لها السيّاح ويعجبون .

وقد اشتهرت هذه الدقة عن المسلمين فى استجابة داعى الصلاة حتى استخدمت أحيانا فى الإضرار بهم والإغارة عليهم . فاتفق فى نيسابور – تلك المدينة المحببة إلى عطار الروح الشاعر المعروف باسم العطار – أن الأذان أعلن لأول مرة غدراً وختلا للإيقاع بمن يستجيبون إليه . إذ حدث فى السنة الثامنة من القرن السابع أن أغارت على المدينة جموع جنكيزخان ، وكان من عادة هذه الجموع التى درجت على الاستئصال والتخريب عادة فريدة بين الأمم فى قسوتها وغدرها ، وهى أن يعودوا إلى المدينة فجأة بعد تخريبها ليعملوا السيف فيمن رجع إليها من أهلها مطمئناً إلى جلاء العدو عنها أو فيمن يقبلون على الأنقاض المحترقة ليستخرجوا نفائس الاعلاق منها . فلما عادوا إلى نيسابور على هذا النحو أمر الزعيم المغولى بإقامة الأذان فأقبل إليه بهذه الحيلة كثيرون ممن كانوا يعتصمون بالمخابئ والزوايا المهجورة ، وصدق المؤرخ الفارسى حين قال فى وصف هذه الجموع : « إنهم يقصدون إلى إبادة نوع الإنسان وفناء العالم ولايقصدون إلى السيادة أو الغنيمة » .

* * *

إن جو المأثورات – بما يحفه من الأشعة والهالات – ليرن فيه صوت بلال أبداً كما رنّ فى الحلم صوت ذلك الغريب فى الأكسية الخضر منبعثاً من عالم فردوسى إلهى مسربل بالضياء .

وليس فى مقدورنا بعد انقضاء تلك المئات من السنين أن نعرف حقيقة صوت المؤذن الإفريقى ولاأن نقوّم مزاياه الموسيقية التى لاشك فيها ، ولكننا إذا صح لنا أن نستدل بما قيل فى وصفه على طبقته الموسيقية فالأغلب الأقرب إلى الحقيقة أنه كان من طبقة « الباريتون » المعروفة لدينا بالامتداد والغزارة خلافا للنغمة العربية التى تعرف بشىء من الحدة والنعومة .

ولا يعوزنا السبب لأن نشك فى أن أحداً من المشهورين بين أرباب صناعة الغناء فى الجاهلية كان من ذلك العنصر – العربى – الذى وصفه سائح فرنسى فقال : إنه شعب صخاب ، وقد أنبأنا الدكتور بيرون Perron فى كتابه الممتع عن النساء العربيات الذى نشر بالجزائر سنة ١٨٤٨ أن معظمهم كانوا عبيداً وأن جميع العبيد قبل الدعوة المحمدية كانوا على وجه الإجمال من الحبش أو الزنوج ، ولايبعد أن تكون القينتان المشهورتان باسم جرادتى عاد – ولايزال لأغانيهما بقية مروية – فتاتين حبشيتين .

وتقول الأخبار إنهما كانتا لعبد الله بن جدعان من سلالة عاد ، وان فترات التاريخ العربى لم تخل من عتقاء أو خلاسيين نبغوا فى الشعر أو فى الفن أو الغناء ، ومن هؤلاء الأغربة السود ذلك الأسود الذى نظم إحدى المعلقات ورويت له أغان وأناشيد بين أحسن القصيد ، ونعنى به عنترة بن شداد .

ومنهم خفاف الشاعر الفارسى ابن عم الخنساء ، والشنفرى الذى لم يكن حظه من الشعر بالقليل ، وقد شهر الحرب وحده على قبيلة كاملة ثأراً لحميه الذى قتلوه لأنه ارتضى لبنته زوجا من غير أكفائها وأقسم لا يهدأن أو يقتل منهم مائة بقتيله . فأصاب تسعة وتسعين منهم ثم أصابوه وقطعوا رأسه وجاء رجل منهم فركله بقدمه العارية فجرح فى قدمه وفسد جرحه فمات . فقيل إن الشنفرى بر بقسمه وهو قتيل .

ويروى عن النبى أنه ود لو شهد عنترة بن شداد ، ولعله لم يكن يود ذلك إعجاباً بشعره كما وده لعلمه بجدوى ذلك الفارس الشاعر لدعوته ، إذ يجنح إليها ويقود لها عتقاء الصحراء جميعاً تحت لواء نبى يبشر بالمساواة .

وطوت روح الإسلام شيئاً فشيئاً قصيد الصحراء الجميل بألوانه الساخنة التى تشبه ألوانها ، وحرارته التى تشبه حرارة رمالها ووقدته التى تشبه وقدة سمائها ، ولكن الأغربة لم تزل تغنى وإن كفت عن نظم المعلقات ! ولم يكن بالقليل عدد المغنين السود أو الخلاسيين الذين نبغوا فى القرون الثلاثة الأولى بعد ظهور الإسلام ، فسعيد بن مذحج الذى صادر الخليفة عبد الملك ماله لأنه فتن أبناء الأشراف بسحر غنائه فأجزلوا له العطايا وضيعوا تراثهم عليه كان عبداً من عبيد مكة ، وأبو محجن نصيب بن الزنجى قد لقى الحظوة من أمراء كثيرين وحكام مختلفين منذ أيام عبد الملك إلى أيام هشام . وقد حشا يزيد الثانى فاه دراً فى يوم من الأيام .

وأبو عباد معبد – أمير الغناء فى عصره – أطرب ثلاثة من الخلفاء ، وغشى على يزيد من الطرب وهو يستمع لغنائه ، ومنحه خلفه اثنى عشر

ألف دينار جائزة واحدة ، ومشى فى جنازته الوليد الثانى هو وأخوه فى ثياب السواد حدادا عليه ، وكان قد مات فى قصره .

ويبدو أن سلامة الزرقاء – التى بلغ ثمن القبلة منها أربعين ألف درهم – كانت من سلالة السود ، وكانت سلامة القس وحبابة صاحبتها من جوارى المدينة المولدات ، وتروى قصة من أشجى القصص العربية عن غرام يزيد بحبابة هذه وموته حزناً عليها .

والأدلة كثيرة على أن أصوات الجوارى السود وأساليبهن فى الغناء كان لها سحر ملحوظ فى نفوس ساداتهن المسلمين ، كما يؤخذ من مطالعة أدباء العرب والفرس فى بعض الأحيان . وقد قيل إن إسماعيل بن جامع أعظم المغنين فى عصر الإسلام الذهبى أعطى جارية سوداء أربعة دراهم لينقل عنها نغما غريباً سمعها تترنم به وهى تحمل الجرة على رأسها . ثم وضع فى ذلك النغم دوراً سمعه الخليفة هارون الرشيد فقال إنه لم يسمع مثله قط فى جماله وابتكاره وأجازه عليه بأربعة آلاف دينار ومنزل نفيس الأثاث والرياش .

ويقص علينا السعدى – الشاعر الفارسى – أنباء أخرى نعلم منها أن أرباب الغناء من السود قد بقيت لهم منزلتهم فى هذا الفن إلى مابعد صدر الإسلام ، ومن تلك الأنباء قصة رواها فى كتابه بستان الورد من أحوال الدراويش وكان لها شاهد عيان .

قال :

« خرجت إلى الحجاز فى رفقة من الشبان الأذكياء ، وكانوا يترنمون فى الطريق بين حين وحين ببعض الأشعار الصوفية ، وكان بيننا رجل من الأتقياء ينكر سلوك الدراويش لأنه يجهل حالهم ولا يعرف

نجواهم ، فلما بلغنا نخل بنى هلال برز لنا من خيام بعض العرب غلام أسود يتغنى بصوت يستنزل الطير من السماء ، ونظرت إلى جمل صاحبنا التقى قد أخذه الصوت الساحر فألقى براكبه إلى الأرض وهام فى الصحراء ، فصحت بالرجل : ياهذا ! إن صوت هذا الفتى قد عمل فى الحيوان الأعجم ولم يعمل فيك » .

وذاك أنه كان من عادات العرب القديمة أن يحفزوا الإبل إلى المسير والصبر على السفر بألحان الحداء ، وقد روى جنتيوس Gentius معقباً على هذه الواقعة فى ترجمته لبستان الورد (امستردام ١٦٥٤) قصة أخرى أعجب من الأولى فقال : « إن مؤلفاً من الثقات نزل بضيافة رجل فى الصحراء ضاعت منه جميع إبله ، فجاءه عبد زنجى وسأله أن يتشفع له عند مولاه فى ذنبه ، فلما حضر الطعام أبى المؤلف الضيف أن يمد يده إليه أو يصفح صاحب الدار عن ذنب مولاه . فقال له صاحب الدار : إن هذا العبد خبيث ضيع عليه ماله ورده إلى أسوأ الحال ، وقد منحه الله صوتا جميلا فأقمته حاديا لإبلى فأجهدها بسحر حدائه حتى قطعت فى يوم واحد مسيرة ثلاثة أيام . ولكنها لم تلبث أن نفقت جميعاً ساعة وضعت عنها أحمالها لفرط مانالها من الإعياء ، وقد وجب لك حق الضيف فتقبلت شفاعتك وأعفيت هذا العبد الخبيث من الجزاء » .

ومن النوادر التى تروى فى هذا المعنى وتدل على شأن الحداة فى المشرق – نادرة حكاها جلال الدين فى تاريخه حيث قال إن المنصور أجاز سالماً الحادى بنصف درهم لأنه أطربه بحدائه حتى أوشك أن يسقط عن جمله ، فقال سالم : لقد حدوت لهشام فأجازنى بعشرة آلاف ! » .

فما لاشك فيه أن المغنين فى الجاهلية وفى الصدر الأول من الإسلام

كانوا على الأكثر من العبيد والمولدين . وأن هؤلاء العبيد السود كانوا من ذوى الهبات الصوتية العجيبة وبلغوا الرفعة بمهارتهم فى الصناعات الموسيقية ، فلا داعى للشك فى ملكة الغناء عند بلال ولافى قيام المأثورات عن صوته الحسن على أساس صحيح . . . ويبقى أن ننظر هل هو الذى أبدع لحن الأذان الذى مضى عليه المؤذنون من بعده أو أنه قد أدى الأذان كما أمر به وأوحى إليه .

وعلينا أن نذكر « أولا » أن العرب الأقدمين مع حساسيتهم الموسيقية لم ترتفع الموسيقى بينهم فوق طبقة التجويد الصوفى إلا فى الفرط النادر ، وغاية ما بلغوه فى هذا الباب يشبه الصدحات الكورسيكية الحديثة بما فيها من الزركشة والترديد على هوى المغنى أو على هوى السامعين . فتعاد الكلمة الواحدة مرة بعد مرة بتمويه وتجويد ومد وقصر يطول التكرار فيه حتى ليستغرق إلقاء القطعة الواحدة من النظم بضع ساعات .

ولاتزال هذه النزعة فى الغناء باقية على حالها بين العرب المحدثين ، فقد صدق بيرون Perron حين سأل : أى سائح فى مصر لم يسمع كلمة ياليل تعاد مرة بعد مرة ونصف ساعة أو تزيد ؟

والأغلب أن الأنغام العربية لم تكن لتزيد فى عهد الدعوة المحمدية على ثلاثة أنواع متميزات : وهى ما يسمى بالنغم البسيط ويغنى به فى مقام الوقار ومعارض البطولة أو السهولة كغناء الحرب والحداء .

وما يسمى بالنغم المركب وهو يتألف من حركات عدة وترجيعات صوتية كثيرة ، وما يسمى بالخفيف وهو يستخف السامع إلى الطرب ويهزه ويحرك أشجانه ويخرجه عن الوقار .

ولما كان بلال عبداً وكان ولا ريب فى بعض أوقاته يسوق الإبل فقد

كان على الأرجح يتغنى بالحداء ويعالج النغم البسيط ، ولكنه – بسليقته الإفريقية التى طبع عليها أبناء جلدته – ربما وجد من وقته متسعاً لترديد الأصوات المركبة واستطاع من ثم أن يلقى الأذان فى ألحانه المعروفة .

فلا يخفى أن النغم الذى يسمع فى المنام قلما يثبت فى الذاكرة ، وأن النغم الذى سمعه المسلم الصالح من الطيف الغريب صاحب الثياب الخضر يصعب أن يعلق بذاكرته ويجرى على لسانه وهو يقص رؤيته على النبى (صلوات الله عليه) .

فلا يبعد إذن أن يكون بلال قد سمع الأذان وصاغ منه اللحن الذى أوحته إليه سليقته الإفريقية الآبدة فأقره النبى عليه كما أقره على ما أضافه بعد ذلك إلى أذان الصبح حيث زاد عليه « الصلاة خير من النوم » .

ولاجرم يقره محمد على أسلوب ترتيله وهو الذى كان يقربه إليه ويسأله الرأى فى مهمات الأمور . وقد كان يؤثره على غيره من المؤذنين ، فلم يكن يؤذن لأحد الرجلين اللذين ندبا للأذان بعده أن يدعو إلى الصلاة وبلال قادر على الدعاء إليها .

* * *

ولزم بلال النبى عن كثب طوال حياته . فكان يوقظ النبى بعد الأذان أحياناً بآية من الآيات أو بكلمة من جوامع الحكمة والتقوى . فإذا اجتمع المصلون بالمسجد اتجهت الأنظار نحو الإفريقى الواقف بالصف الأول ليتلوه فى حركات الصلاة ، فإن من واجب المؤذن بعد إعلان الأذان أن يصحب الإمام بالتكبير والدعاء كما يصنع الشماس مع الأسقف فى الصلاة المسيحية .

ولما تعاظمت قوة الإسلام تعاظمت معه مكانة بلال وعهدت إليه

أمور أهم وأكبر من الأذان . فكان خازن بيت النبى وأمينه على المال الذى يصل إلى يديه ، وتلقى من النبى مفاتيح الكعبة يوم دخل مكة فى موكبه الظافر وكان هو الذى أقام الأذان على أعلى مكان فى تلك البنية التى اشتهرت الآن فى أنحاء الكرة الأرضية . وكان هو الداعى إلى الصلاة يوم حضر إلى المدينة ملوك حضرموت للدخول فى الإسلام ، وكان هو الذى يدعو إلى الصلاة حين يحتشد فرسان الإسلام بالصحراء لقتال عابدى الأوثان .

وتروى عنه أخبار شتى بعد وقعة بدر وفتح خيبر تشف عن بغض شديد لأعداء وليه والمحسن إليه لاحاجة بنا فى هذا المقام إلى تفصيلها ، وأجمل من هذا أن نذكر للأسود الأمين غيرته على شخص النبى يوم ذهب معه فى حجة الوداع فظل يحرص على راحته طوال الطريق ويمشى إلى جانبه مظللا إياه بستار فى يده يحميه وهج الظهيرة ، ولعله فى تلك الرحلة قد عبر فى الوادى المقدس تلك الأماكن التى كان سادات قريش يعذبونه هو فى حر شمسها .

ثم توفى محمد « عليه السلام » فسكت الصوتِ العجيب ودعى مؤذنون آخرون لدعاء المسلمين إلى الصلاة . لأن بلالا عاهد نفسه ألا يؤذن لإمام بعد نبيه ووليه .

ولا نعلم كم من الوقت قضاه بلال فى صحبة أبى بكر بالمدينة ، ولكنه ولاريب كان فى موضع الرعاية والكرامة بين المسلمين ، وكان له من جلال القدر فى أنظارهم ماخوله أن يخطب امرأة عربية حرة لأخيه الأسود وهى رعاية عظمى بين قوم لايزالون يفخرون بصحة النسب ويسمون أنفسهم بالأحرار أى الخلّص من النسب الخليط .

ويؤخذ من بعض الأنباء أن بلالا قد تولى بعض مهام الدولة بعد الخليفة الأول . فلما أراد الخليفة العادل الصارم فى عدله – عمر بن الخطاب – أن يحاسب « سيف الله » خالد بن الوليد على بعض أعماله كان بلال هو الذى نزع عمامة خالد وأوثق يديه أمام جماعة المسلمين بالمسجد وهو يردد مشيئة أمير المؤمنين .

ولكننا لانسمع بعد هذه القصة عن بلال إلا القليل ، حتى وصل عمر إلى الشام فنعلم أنه كان يصحب الجيش وأنه كان قد منح بجوار دمشق قطعة من الأرض واعتزل الحياة العامة كل الاعتزال .

وكان معظم الصحابة قد فارقوا الدنيا ، ولحق أبو بكر وخالد بالنبى فى رضوان ربه كما لحق به آخرون ممن جاهدوا معه فى معارك الإسلام الأولى . ولم يكن الجيل الجديد على نمط الجيل الذى تقدمه فى المعيشة ، فزالت أوكادت تزول من حياة العرب تلك البساطة البدوية التى درجت عليها ، وظهرت بينهم بدع من الترف الآسيوى لم تكن معهودة فيما مضى ، وتدفقت أموال فارس على المدينة كأنها سيل من الذهب حتى دمعت عينا الخليفة عمر وهو ينظر إليها ويخشى منها الفتنة والحسد على رعاياه .

وفى خلال ذلك كانت العقيدة التى تعذّب بلال من أجلها ودان بها زمناً وهى لاتتجاوز حى أبى طالب – قد جاوزت البرور والبحار إلى سورية وفلسطين وفارس ، وشهدها قبل أن يسلم روحه إلى ذلك الذى لاينام وهى تسلك سبيلها إلى القارة الأفريقية فتضمها إلى فتوح الإسلام . وبهذا أصبحت دعوته الأولى – دعوة الأذان – مستجابة بين أقوام من المتعبدين من تخوم الهند إلى شواطئ الأطلس ، وقرع فرسان الصحراء

العربية أبواب كابل . . . ولعل ولداً من ذرية بلال قد عاش حتى رأى الدولة تمتد على بقاع الأرض مسيرة مائتى يوم بين المشرق والمغرب . وإن ما بلغته الفتوح الإسلامية – حتى فى السنة الثانية عشرة للهجرة – لخليق أن يستجيش فى صدر الشيخ الهرم حمية الدين التى عمر بها ملء جانحيه .

• • •

سكت صوت بلال عن ترديد الأذان بعد نبيه ووليه ، لأنه رأى فى حسبانه التقى أن الصوت الذى أسمع نبى الله ودعاه إلى بيت الصلاة لاينبغى أن يسمع بعد فراق مولاه . ولنا أن نتخيله فى مأواه بالشام وأنه ليدعى مراراً إلى ترديد ذلك الدعاء الذى أعلنه لأول مرة تحت قبة السماء المضاءة بمصابيح الكواكب ، وإنه ليضطر مراراً إلى الإباء والاعتذار لأولئك الذين كانوا يجلونه إجلال القديسين ويودهم لو بذلوا أموالهم كلها ليسمعوه .

إلا أنه لما ذهب عمر إلى دمشق توسل إليه رؤساء القوم أن يسأل بلالا إقامة الأذان تكريماً لمحضر أمير المؤمنين ، فرضى بلال وكان أذانه الأخير .

• • •

لقد كانت غيرة فتيان الدين الجديد فى تلك الأيام غيرةً يوشك ألا تعرف الحدود ، ومن المحقق أن النبأ الذى سرى بينهم مبشراً باستماعهم إلى أذان بلال قد أذكى فى نفوس أهل المدينة الورديةِ الشذى حميةً مفرحة لانظن أن العالم المسيحى قد شهد لها مثيلا فى غير أيام الصليبيين .

فلما شاعت البشرى بين أبناء المدينة بسماع صوت المؤذن النبوى لاح للأكثرين ولاشك أن الظفر بسماع هذا الصوت غنيمة مقدسة تكاد أن

تضارع الظفر بسماع النبى عليه السلام . . . وأنها أفخر أحدوثة فى الحياة تروى بعد السنين الطوال للأبناء والحفدة . وقد يكون فى المدينة من تلقى النبأ بشعور لا يتجاوز التطلع والاستشراف ، ولكن الأكثرين الذين تزاحموا فى صمت وخشوع واجفى القلوب مرهفى الآذان لسماع « التكبيرة » المعروفة قد خامرهم ولا ريب شعور أعمق وأقوى من أن يلم به النسيان . وتزكى روايات العيان هذا الاعتقاد ، لأننا نعلم من تلك الروايات أنهم بعد لهفة الانتظار فى تلك اللحظة لم يلبثوا أن سمعوا رنة الصوت الجهورى تشق حجاب السكون وتتعاقب من حنجرة الشيخ الأفريقى بتلك الكلمات المحبوبة الباقية حتى بكى عمر ومن معه وتحدرت الدموع على وجوه أولئك الأبطال المجاهدين وارتفع لزفراتهم نشيج عال غطى فى المسجد على دعاء الأذان الأخير .

أى فنان موسيقى أو دارس لتاريخ الموسيقى لا يود لو يسمع كيف كان صدى بلال فى ذلك الأذان ، وأن يسمع الكلمات الخالدات كما كانت تسمع من أول المؤذنين ؟ !

ولاحاجة بنا إلى أن نقول إنها أمنية مستحيلة ، لأن فن النوطة أو تدوين الأنغام لم يكن معروفا يومئذ بين العرب ، ولم تكن لهم وسيلة لنقل الصوت من جيل إلى جيل غير تعليق الذاكرة ، فليس فى وسعنا أن نجزم كل الجزم بما بقى أو بما تبدل من تلحين بلال للأذان . ولكننا نرجع إلى الظن وقد يغنى فى هذا الباب . ولدينا من الأسباب مايكفى لترجيح بقاء الأصوات نيفاً وألف سنة محفوظة فى الذاكرة بغير تدوين ، ولعلنا نستطيع القول بأن بعضاً من النغمات العبرية بقيت بهذه الوسيلة من أيام سليمان ، وليست غيرة العرب على المأثورات الدينية بأقل من غيرة العبريين ، فلا جرم تسنح

لأنغام الأذان فرصة للبقاء فى الذاكرة كالفرصة التى سنحت لأناشيد إسرائيل .

فمن الجائز أن الأذان الحديث فيه على الأقل نغمات مشابهة للنغمات التى ابتدأ بها بلال إذ كانت الكلمات نفسها باقية بغير تبديل

ولعل مصر التى فتحت وبلال بقيد الحياة – مصر بلد الخلود الذى لا يقبل التبديل – قد حفظت دعوة الصلاة كما كانت ترتل فى العشرة الثانية بعد الهجرة المحمدية . وقد سمعت الأذان من مؤذنين سمعوه من بلال .

ويرضينا أن نعتقد أن بلالا نفسه قد أدى الأذان على نحو يشبه أداءه المسموع فى مصر الحديثة كما سجله فيلوتوVilloteauوهو أنغام تذكر السامع برسوم العمارة العربية وتنقسم إلى أجزاء وأجزاء مما يقع موقع الغرابة فى تأثيره على مسامع الغربيين .

وقد كان المؤذن الذى سمعه فيلوتو أقرب إلى التفنن من المؤذن الذى سجل لين Lane نغماته فى كتابه عن المصريين المحدثين فإذا بها تنتهى وفى السمع انتظار لبقية تالية . . . ولعلنا نؤثر أن يكون تلحين بلال من قبيل ذاك الأذان لما فيه من تجزئة النغم التى يألفها العرب وتشبه تلك الخفايا المستغربة فى الأصداء الإفريقية . إلا أن النغم الآخر مع هذا يعبر على بساطته عن جمال ووقار ويوحى إلى معنى العبادة الخالدة التى لا نهاية لها والتى هى أبداً فى ابتداء بغير ختام ، كما يوحى إلى صلاة معلقة تتصل بما بعدها ولو كانت هى آخر صلاة .

تعقيب

من الصفحات التى مرت بنا – مترجمة من الإنجليزية عن الكاتب الألمى لفكاديو هيرن – يتبين للقارئ منزعه الأدبى فى الكتابة والتصوير . وهو على الأغلب منزع الخيال والمجاز والعطف على الحياة الشرقية التى تمتزج بتواريخ الروحيات والدينيات على الإجمال ، وهو مع تحقيقه فى مراجعة المصادر التى اعتمد عليها لم يخل من هفوة هنا أو هناك لايعيبها سوء النية الذى تشفّ عنه أقوال الكثيرين من المستشرقين ، وإنما يوقعه فى الخطأ حب المجاز أو الاسترسال فى صقل موضوعه وتجميل صورته ، فلا يستغنى هذا المقال الممتع الذى حيى به ذكرى المؤذن الأول عن تعقيب نصحح فيه من مقاله مايحتاج إلى التصحيح أو الاستدراك .

فمن هفواته العرضية إشارته إلى عقب بلال رضى الله عنه وليس له عقب كما ورد فى ابن هشام نصاً ، وكما يفهم من السكوت عن ذكر بنين له أو بنات فى كل ماقرأناه عنه .

ومن هذه الهفوات العرضية اعتقاده أن أبا رويحة كان أخا لبلال من أبويه أو من أحدهما وهو على أرجح الأقوال أخوه فى الإسلام على سنة المؤاخاة التى كان النبى (صلوات الله عليه) يعقدها بين الصحابة من أنصار ومهاجرين .

غير أن هفوته الظاهرة هى مذهبه فى تعليل كثرة المغنين والمغنيات بين الموالى فى بلاد العرب وقلتهم بين أبناء البلاد الأصلاء فإنه يجنح فى كلامه إلى تعليل هذه الكثرة بنقص فى الأداة الصوتية ، أو فى القدرة الفنية عند العربى الأصيل ، وأن الموالى والجوارى من السود والأحباش سلموا من هذا النقص فكثر اشتغالهم بفن الغناء فى الحجاز ثم فى غيره من الأقطار الإسلامية .

وظاهر أن هذا التعليل بعيد من الصواب ، لأننا نسمع العرب اليوم فى حديثهم وندائهم كما سُمعوا قبل الإسلام فلا نجدهم قاصرين فى الجملة عن أداء صوت من الأصوات أو الارتفاع فى جهارة الصوت وقوته إلى طبقة من الطبقات ، ولكنهم كانوا يعرضون عن صناعة الغناء لاعتقادهم فى بداوتهم أنها صناعة أنثوية لاتليق بالفارس المقدام ولا بالرجل الكريم ، وأن المنادمة والتسلية بجمال المسمَع أو جمال المنظر أدنى إلى عمل النساء منها إلى عمل الرجال ، وكانوا أهل حرب أو تجارة فلا يحمدون من الرجل الكريم أن يشتغل بعمل غير القتال أو تسيير القوافل بين رحلتى الصيف والشتاء ، وكثيراً ما كان تسيير القوافل بالتجارة ضرباً آخر من ضروب القتال .

وتوارثوا هذا الاعتقاد إلى مابعد أيام الدولة الإسلامية ، فكان الغناء مقصوراً على الموالى والجوارى أو على المخنثين الذين يتشبهون بالنساء فى المظهر والكساء ، ولهذا كانوا يرسلون الشعر ويطلون الوجوه وعنهم أخذ الأوربيون هذه العادة وعمموها فى أزياء أصحاب الفنون من موسيقيين ومصورين وممثلين ، وظل إرسال الشعر وطلاء الوجه شائعاً بينهم إلى زمن قريب ، بعد أن نقلوه من الأندلس ونقله الأندلسيون عن أهل الصناعة فى مدن الحجاز .

فكثرة المغنين بين الموالى والجوارى إنما ترجع إلى هذه العلة لا إلى عجز الأداة الصوتية فى العرب الأصلاء ، وقد كانت لهم صناعة غناء لاينكرونها وهى الحداء والنصيب وما إليه ، فكانوا يبلغون بها أقصى مدى الصوت الإنسانى فى العلو والقوة والامتداد ، وقد سمعناهم فى البادية مع

القمراء فكانت أصواتهم الجهيرة تملأ الصحراء . وهى فى الغناء أعسر مكانٍ على امتلاء .

وصوت بلال رضى الله عنه لم يطلب [illegible] هذا للآذان لأنه عرف قبل ذلك فى أفانين الغناء ، ولعله رعى الإبل وحداها فى بوادى الحجاز أو فى الطريق بين الحجاز واليمن وبين الحجاز والشام ، ولم يذكر قط أنه اشتغل بغير هذا الضرب من الغناء قبل الإسلام أو بعد الإسلام ، فإنما عرفت جهارة صوته فى الحرب والسلم وحداء الطريق فاختاره النبى عليه السلام للأذان ، وكانت تقواه وغيرته على الصلاة والعبادة ولزوم المسجد من أسباب ذلك الاختيار .

فهرس